الباب الرابع والعشرون

اليقظة الهلنستية

الفصل الأول

مصر الرومانية

كان خليقاً بمصر أن تكون أسعد بلدان الأرض قاطبة ، لأن النيل يرويها ويغذيها ، ولأنها أكثر بلاد البحر الأبيض المتوسط قدرة على الاكتفاء بخيراتها — فهى غنية بالحب والفاكهة ، تنتج أرضها ثلاث غلات فى العام ، ولم يكن يعلو عليها بلد آخر فى صناعاتها ، وكانت تصدر الغلات والمصنوعات إلى مائة قطر وقطر ، وقلما كان يزعجها ويقلق بالها حرب خارجية أو أهلية . ولكن يبدو أن « المصريين » برغم هذه الأسباب — أو لعلهم لهذه الأسباب — « لم ينعموا بالحرية يوماً واحداً فى تاريخهم كلهم »[1] على حد قول يوسفوس . ذلك أن ثروتهم كانت تغرى بهم الطغاة أو الفاتحين واحداً فى إثر واحد مدى خمسين قرناً من الزمان كانوا فيها يستسلمون لأولئك الطغاة والفاتحين(*) .

(*) هذه إحدى الأكاذيب التى يرويها المؤرخون دون تحقيق والتى يكذبها تاريخ مصر تكذيبا قاطعاً ، فلقد نعمت مصر فى جميع أدوار تاريخها بعصور من الحرية طوال ؛ وإذا كانت قد خضعت فى بعض أيامها لغيرها من الدول فإن معظم الأمم لم تسلم من هذا الخضوع ، وقد امتصت مصر الفاتحين فصرتهم أو أخرجتهم من أرضها واحتفظت بطابعها مع ما يقتضيه الزمن من تطور لا بد منه . وإذا كانت قد حكمها ملوك أو حكام وفد آباؤهم عليها من خارجها فإن هذا لا ينقص من استقلالها ، وقد حدث مثله فى بلاد العالم . وليس صحيحاً أيضا أنهم مستسلمون إلى الحد الذى يصفه المؤرخ فلطالما ثاروا فى جميع أدوار التاريخ على الطغاة والغاصبين . (المترجم)

(شكل – ٦) صورة فتاة

ولم تكن رومة تعد مصر ولاية تابعة لها ، بل كانت تعدها من أملاك الإمبراطور نفسه ، وكان يحكمها حاكم مسئول أمامه وحده . وكان موظفون من اليونان المتمصرين يديرون أقسامها الثلاثة — مصر السفلى ، ومصر الوسطى ، ومصر العليا ، ومقاطعاتها الست والثلاثين ، وبقيت اللغة اليونانية فى ذلك العهد هى اللغة الرسمية — ولم تبذل محاولة ما لتحضير السكان ، فقد كانت وظيفة مصر فى الإمبراطورية أن تكون المورد الذى تستمد منه رومة مايلزمها من الحبوب . ولهذا السبب انتزعت من الكهنة مساحات واسعة من الأرض وأعطيت للممولين الرومان أو الإسكندريين ، وجعلت ضياعاً واسعة يعمل فيها الفلاحون ويستغلون بلا رحمة . وظلت الرأسمالية الحكومية كما كانت فى عهد البطالمة ، وإن كانت فى صورة أخف من عهدها السابق ؛ لقد كانت تنظم كل خطوة من خطوات الأعمال الزراعية وتشرف على تنفيذها : فكان موظفون حكوميون مطردو الزيادة يعينون ما يزرع من المحاصيل ، ومقدار ما يزرع منها ، ويوزعون البذور على الزراع فى كل عام ، ويستولون على المحصولات ويودعونها فى مخازن حكومية (thesauroi) ، ويصدرون منها حصة رومة ، ويقتطعون الضرائب منها عينا ، ويبيعون ما يتبقى بعد ذلك فى السوق . وكان القمح والكتان محتكرين للحكومة من البذر إلى البيع ؛ وكذلك كان شأن الطوب ، والروائح العطرية وزيت السمسم فى الفيوم إن لم يكن فى غيرها من الأقاليم ، أما غير هذه من الميادين الاقتصادية فكان يسمح فيها بمشروعات الاستغلال الخاصة ، على أن يكون هذا الاستغلال خاضعاً لأنظمة دقيقة شاملة . وكانت مصادر الثروة المعدنية كلها ملكاً للدولة ، وكان قطع الرخام واستخراج الحجارة الكريمة امتيازاً خاصاً للحكومة .

واتسع نطاق الصناعات المنزلية فانتشرت فى المدن — وكان قد مضى على قيامها فى مصر زمن طويل ، فاشتهرت بها مدائن بطليموئيس Ptolemais ، ومنفيس وطيبة ، وأكسيرهنكس Oxyrhynchus ، وصان ، وبسطة ، ونقراطيس ،

وهليوپوليس (عين شمس) ؛ وكانت هذه الصناعات فى الإسكندرية المورد الذى تعتمد عليه نصف حياة العاصمة الصاخبة . ويبدو أن صناعة الورق كانت قد بلغت وقتئذ المرحلة الرأسمالية ، فإن استرابون يحدثنا أن أصحاب مزارع البردى حددوا محصوله ليرفعوا سعره[٣] . وكان الكهنة يقيمون المصانع فى حرم الهياكل ، ويخرجون فيها نسيجاً رقيقاً من التيل ، يصنعون منه ملابسهم ، ويبيعون بعضه فى الأسواق . وقلما كان يوجد أرقاء فى مصر يعملون فى غير الخدمات المنزلية ، لأن العمال « الأحرار » لم يكونوا يؤجرون أكثر مما يكفى لستر عورتهم وسد رمقهم . وكان هؤلاء العمال يضربون عن العمل (anachoresis) فى بعض الأحيان — فكانوا يمتنعون عنه ويحتمون بالهياكل حتى يخرجوا منها بتأثير الجوع أو الألفاظ المعسولة . وكان يحدث أحياناً أن ترفع الأجور ، فترتفع الأثمان ، وتعود الأمور كما كانت من قبل ؛ وكان يسمح بإنشاء النقابات الطائفية ، ولكنها كانت فى الأغلب الأعم خاصة بالنجار ومديرى الأعمال ، وكانت الحكومة تستخدمها فى جباية الضرائب وفى تنظيم أعمال السخرة كإقامة السدود ، وحفر الترع وتطهيرها ، وإقامة المبانى العامة .

وكانت التجارة الداخلية نشطة ولكنها بطيئة . فقد كانت الطرق رديئة ؛ وكانت وسائل النقل البرى هى الحمالين ، والحمير ، والجمال — التى حلت وقتئذ محل الخيل للجر والحمل فى أفريقية . وكان جزء كبير من التجارة الداخلية ينقل نهر النيل أو القنوات . وكانت قناة كبرى يبلغ عرضها مائة وخمسين قدماً وتمت فى عهد تراجان ، تربط البحر الأبيض المتوسط بالمحيط الهندى عن طريق النيل والبحر الأحمر . فكانت السفن تخرج فى كل يوم من الثغور الواقعة على هذا البحر مثل أرسنوئى ، وميوس هرموس Muos Hormos وبرنيس فى طريقها إلى أفريقية أو الهند . وكان النظام المصرفى الذى يمول الإنتاج والتجارة خاضعاً بأكمله للرقابة الحكومية ، وكان فى حاضرة كل إقليم

مصرف للدولة ، يتسلم الضرائب ، وتودع فيه الأموال العامة . وكانت القروض تعقد للزراع وتشجيع الصناعة والتجارة والأعمال المالية ، تقرضها الحكومة أو الكهنة من خزائن الهياكل ، أو هيئات الإقراض غير الحكومية[٤] . وكانت الضرائب تفرض على جميع المنتجات ، والعمليات الاقتصادية ، والبيع ، والإصدار ، والاستيراد ، بل وعلى القبور ودفن الأموات ؛ وكانت فروض إضافية تقرر من حين إلى حين ، وتجبى عينا من الفقراء أو خدمات من الأغنياء . وكانت البلاد — أو كان سادتها — من عهد أغسطس إلى تراجان فى رخاء ؛ ثم أخذ هذا الرخاء ، بعد أن وصل إلى ذروته فى ذلك العهد ، يفارقها بتأثير الخراج الذى لم يكن يعرف له حد ، والضرائب الفادحة ، وما يعقبهما من كساد ونضوب فى موارد البلاد ، وما يؤدى إليه الاقتصاد المجند من تراخ وإهمال .

وبقيت مصر فى خارج الإسكندرية ونقراطيس محتفظة بمصريتها عابسة صامتة ، وقلما اصطبغ فيها شىء بالصبغة الرومانية بعيداً عن مَصابّ النيل ؛ وحتى مدينة الإسكندرية نفسها ، التى كانت أعظم المدائن اليونانية ، أخذت فى القرن الثانى بعد الميلاد تصطبغ بصبغة الحواضر الشرقية فى أخلاق أهلها ولغاتهم وفى جوها الشرقى . وكان يسكن عاصمة مصر ٨٠٠ر٠٠٠ من جميع سكان البلاد البالغ عددهم ٨ر٥٠٠ر٠٠٠[٥] (وكان عدد سكانها فى عام ١٩٣٠ نحو ٥٧٣ر٠٠٠) ، ولم يكن يزيد عليها فى عدد السكان سوى رومة نفسها . أما من حيث الصناعة والتجارة فقد كانت أولى المدن فى الإمبراطورية . وقد ورد فى خطاب يعزى إلى هدريان — وإن كنا نشك فى صحة نسبته إليه — أن كل شخص فى الإسكندرية يعمل ، وأن لكل إنسان فيها حرفة ، وحتى العرج والعمى يجدون لهم عملا فيها[٦] ؛ وكان من بين مئات الصناعات القائمة فى المدينة صناعة الزجاج ، والورق ، ونسج الكتان . وكانت هذه المصنوعات موفورة الإنتاج ، وكانت الإسكندرية مركز صناعة الكساء والأزياء العصرية المستخدمة فى ذلك الوقت ، فكانت

هى التى تضع طراز الملابس وهى التى تصنعها . وكان لمرفئها العظيم تسعة أرصفة ، يخرج منها أسطولها التجارى ليمخر عباب عدة بحار . وكانت المدينة فوق ذلك مركزاً للسياح ، فيها الفنادق ، والأدلاء ، والمترجمون لاستقبال الزائرين القادمين إليها لمشاهدة الأهرام والهياكل الفخمة فى طيبة . وكان شارعها الرئيسى يبلغ عرضه سبعا وستين قدما ، وتقوم على جانبيه العمد ، والبواكى ، والحوانيت المغرية تعرض أجمل التحف التى تنتجها الصناعات القديمة . وكان عند كثير من ملتقى الشوارع ميادين واسعة أو دوائر يسمونها الطرق « الواسعة » (Plateai) — ومنها اشتقت الكلمة الإيطالية Piazza ، والكلمتان الإنجليزيتان Plaza ، Place . وكانت مبانى ذات روعة تزين الشوارع الرئيسية — دار تمثيل كبرى ، ومصفق ، وهياكل لبسيدن ، وقيصر ، وزحل ، وسرابيوم أو هيكل لسرابيس ذائع الصيت ، وطائفة من مبانى الجامعة التى اشتهرت فى العالم كله باسم المتحف (الميوزيوم Museum أو بيت ربات الفن Muses) . وكانت المدينة مقسمة خمسة أقسام ، خص قسم منها بأكمله تقريباً بقصور البطالمة ، وحدائقهم ، ومبانى الإدارات الحكومية ، وكان يقيم فيه فى العصر الرومانى حاكم المدينة . وفى هذا القسم دفنت جثة الإسكندر الأكبر مؤسس المدينة فى ضريح جميل الشكل ، وقد وضعت فى تابوت من الزجاج وحفظت من البلى فى العسل .

وكان سكان المدينة خليطا من اليونان ، والمصريين ، واليهود ، والإيطاليين والعرب ، والفينيقيين ، والفرس ، والأحباش ، والسوريين ، والليبيين ، والقليقيين والسكوذيين ، والهنود ، والنوبيين ، ومن شعوب البحر الأبيض كلهم تقريبا . وكان يتألف منهم جميعا خليط سريع الذوبان بعضه فى بعض ، سريع الالتهاب أيضا ، متشاحن ، سيئ النظام ، عظيم المهارة والذكاء ، فكه غير محتشم ، لا يستحى من فحش القول ، متشكك ، مخرّف ، غير مستمسك بالخُلق الكريم ، مرح ، شديد الولع بالتمثيل ، والموسيقى ، والألعاب العامة . ويصف ديوكريسستوم

الحياة فى المدينة بأنها « قصف دائم . . . للراقصات ، والمصفرين ، والقتلة »[٨] . وكانت القنوات غاصة على الدوام بمحبي المرح والطرب ، يستقلون القوارب الصغيرة أثناء الليل ، يقطعون فيها مسافة الأميال الخمسة التى توصلهم إلى كنوبس Canopus ضاحيتها المليئة بالملاهى وأسباب التسلية . وكانت تقام فيها مباريات موسيقية لا تقل عن سباق الخيل إثارة للمشاعر والتصفيق والضجيج .

وإذا جاز لنا أن نصدق فيلو[٩] فيما يقوله عن سكان المدينة ، فقد كان أربعون فى المائة منهم من اليهود ، وكانت كثرة يهود الإسكندرية تعمل فى الصناعة والتجارة ، وتعيش فى فقر مدقع[١٠] ؛ وكان كثيرون منهم تجاراً ، وعدد قليل منهم مرابين ، وبلغ بعضهم من الثراء درجة استطاعوا بها أن يحصلوا على مناصب يحسدون عليها فى الحكومة ؛ وبعد أن كانوا فى أول الأمر لا يشغلون إلا خمس مساحة المدينة أصبحوا فى الوقت الذى نتحدث عنه يشغلون خمسها . وكانوا يحاكمون بمقتضى قوانينهم الخاصة على أيدى كبرائهم ؛ وأيدت رومة الامتيازات التى منحها إياهم البطالمة والتى يحق لهم بمقتضاها أن يتجاهلوا أى قانون يتعارض مع أوامر دينهم . وكانوا يفخرون بكنيسهم المركزى الفخم وهو باسلقا ذات عمد ، بلغ من الاتساع حداً كان لا بد معه من استخدام نظام للإشارات يضمن بها استجابة المصلين الذين لا يستطيعون — لبعدهم عن المحراب — أن يسمعوا أصوات الحاخام[١١] . ويستفاد من أقوال يوسفوس أن الحياة الأخلاقية ليهود الإسكندرية كانت مضرب المثل فى الاستقامة إذا قيست إلى حياة السكان « الوثنيين » الشهوانية الطليقة[١٢] . وكانت لهم ثقافة ذهنية نشيطة ، كما كان لهم حظ كبير من الدراسات الفلسفية والتاريخية والعلمية فى ذلك الوقت . وكانت المدينة تضطرب من حين إلى حين بالعداء العنصرى ؛ وشاهد ذلك أننا نجد فى النبذة التى كتبها يوسفوس ضد أبيون (وهو زعيم معاد للسامية) جميع الأسباب ، والحجج ، والخرافات التى تعكر العلاقات بين اليهود وغيرهم من أصحاب الأديان الأخرى فى

هذه الأيام . وقد حدث فى عام ٣٨ م . أن هاجم الغوغاء من اليونان معابد اليهود وأصروا على أن يضعوا فى كل منها تمثالا لكلجيولا ليتخذوه إلهاً . كذلك حرم أفليوس فلاكس حاكم المدينة الرومانى اليهود من حق المواطنية الإسكندرية وأمر من كانوا يعيشون منهم خارج القسم اليهودى الأصلى أن يعودوا إليه فى خلال بضعة أيام من صدور الأمر ، فلما انقضى الأجل المحدد لهذه العودة أحرق الغوغاء اليونان أربعمائة من بيوت اليهود ، وقتلوا من كان منهم خارج ذلك الحى ؛ وقبض على ثمانية وثلاثين من أعضاء الجروزيا (مجلس الشيوخ) اليهودى ؛ وجلدوا علناً فى إحدى دور التمثيل ، وطرد آلاف من اليهود من بيوتهم أو من أعمالهم أو حُرموا ما كانوا يدخرونه من أموالهم . وعرض الحاكم الذى خلف فلاكس أمرهم على الإمبراطور ، وسافر إلى رومة (عام ٤٠ م) وفدان مستقلان — أحدهما يتألف من خمسة من اليونان والآخر من خمسة من اليهود — ليعرض كل منهما قضيته على كلجيولا ، ولكن الإمبراطور قضى نحبه قبل أن يصدر حكمه ، فلما جلس كلوديوس على العرش أعاد إلى يهود الإسكندرية ما كان لهم من حقوق ، وأكد لهم مواطنيتهم فى المدينة ، وأصدر أمراً مشدداً إلى الطائفتين المتنازعتين ألا تعكرا صفو السلام .

الفصل الثانى

فيـــلو

كان رئيس الوفد اليهودى إلى كليجيولا هو الفيلسوف فيلو ، وكان أخوه مدير تجارة الصادر اليهودية فى الإسكندرية . ويصـــفه يوسيبيوس Eusebius بأنه من أسرة عريقة من رجال الدين(١٣) . ولا نكاد نعرف شيئاً غير هذا عن حياته ولكن تقواه وكرم أخلاقه يظهران واضحين فى فى المؤلفات الكثيرة التى وضعها فى شرح الدين اليهودى للعالم اليونانى . وقد نشأ الرجل فى جو دينى ، فكان شـــديد الوفاء لشعبه ، ولكنه افتتن بالفلسفة اليونانية ، فجعل هدفه فى الحياة أن يوفق بين الكتاب المقدس وعادات اليهود من جهة ، والآراء اليونانية وبخاصة فلسفة أفلاطون « أقدس القديسين » من جهة أخرى . ولكى يصل إلى غرضه هذا لجأ إلى المبدإ القائل إن جميع الحادثات ، والأخلاق ، والعقائد ، والشرائع المنصوص عليها فى العهد القديم ذات معنيين أحدهما مجازى والآخر حرفى ، وإنها ترمز إلى حقائق أخلاقية أو فلسفية ؛ وكان فى وسعه بهذه الطريقة أن يبرهن على صحة أى شىء يريد البرهنة على صحته . وكان يكتب باللغة العبرية بأسلوب لا بأس به . ولكن أسلوبه فى اليونانية بلغ من الجودة حداً جعل المعجبين به يقولون إن « أفلاطون كان يكتب كما يكتب فيلو »(١٤)

وكان فيلسوفاً أكثر مما كان رجل دين ، وكان صوفياً استبقت تقواه الشديدة تقوى بلوتينس وعقلية العصور الوسطى . وكان الله فى كتابات فيلو هو الكائن الجوهرى فى العالم ، وهو كائن غير مجسد ، أزلى سرمدى ، يجل عن الوصف ؛ فى وسع العقل أن يدرك وجوده ، ولكنه لا يستطيع أن يخلع عليه صفة ما ، لأن كل صفة تعنى التحديد . الذين يتصورونه فى صورة بشرية إنما

يفعلون ذلك لتقريبه من خيال البشر الحسى . والله موجود فى كل مكان ؛ « وهل ثمة مكان يستطيع الإنسان أن يجده وليس الله فيه ؟ »[١٥] ولكنه ليس كل شيء ، فالمادة أيضاً سرمدية وغير مخلوقة ؛ ولكنها لا تكون لها حياة ، ولا حركة ، ولا صورة حتى تنبعث فيها القوة الإلهية .

ولكى يخلق الله العالم بأن يشكل المادة ، ويوجـد الصلات بينه وبين الإنسان ، استخدم لذلك جمعا من الكائنات الوسطى يسميها اليهود ملائكة ويسميها اليونان شياطين diamones ويسميها أفلاطون أفكاراً . ويقول فيلو إن فى وسعنا أن نتصور هذه الكائنات فى صورة أشخاص ، وإن كانت فى واقع الأمر لا وجود لها إلا فى العقل الإلهى بوصفها أفكار الله وقواه[١٦]. وهى مجتمعة تكون ما يسميه الرواقيون الكلمة أو العقل الإلهى خالق العالم وهاديه . وكان فيلو يتأرجح بين الفلسفة واللاهوت ، وبين التجسيد ، ولهذا كان يفكر فى العقل الإلهى مرة كأنه شخص وفى ساعة من ساعات نشوته الشعرية يسميه أول ما ولد الله »[١٧] . وابن الله من الحكمة العذراء[١٨] ، ويقول إنه عن طريق الكلمة كشف الله عن نفسه للإنسان . وإذ كانت الروح فى رأيه جزءاً من الله ، فإن فى وسعها أن تسمو عن طريق العقـل فترى الكلمة رؤيا صوفية ، وإن كانت لا ترى الله نفسه ؛ وربما كان فى وسعنا إذا تحررنا من دنس المادة والحس ، وتدربنا على الزهد والتفكير الطويل ، أن نصبح فى ساعة من الساعات روحا خالصة ، وأن نرى الله نفسه فى لحظة من لحظات النشوة[١٩] .

ولقد كانت « عقيدة العقل الإلهى » التى يقول بها فيلو من الآراء ذات الأثر الأكبر فى تاريخ التفكير البشرى . ولرأيه هذا سابقات واضحة فى فلسفة هرقليطس وأفلاطون ، والرواقيين ؛ وأكبر الظن أنه كان يعرف الآداب اليهودية التى نشأت فى العصر القريب من عصره ، والتى جعلت من حكمة الله بوصفه خالق الكون شخصاً محدداً مميزاً ؛ وما من شك فى أنه قد انطبعت فى عقله

تلك العبارات الواردة فى سفر الأمثال (٨ : ٢٢) وما بعدها ، والتى تقول فيها الحكمة : « الرب قنانى أول طريقه من قبل أعماله منذ القدم : منذ الأزل مسحت منذ البدء ، منذ أوائل الأرض . إذ لم يكن غمر أبدئت إذ لم تكن ينابيع كثيرة المياه . من قبل أن تقررت الجبال قبل التلال أبدئت إذ لم يكن قد صنع الأرض بعد » .

وكان فيلو معاصراً للمسيح ويلوح أنه لم يسمع قط عنه ، ولكنه قد أسهم على غير علم منه فى تكوين اللاهوت المسيحى . ولم يكن أحبار اليهود راضين عن تفسيراته المجازية للكتاب المقدس ، لظنهم أن هذه التفسيرات قد تتخذ حجة لنبذ الطاعة الحرفية للشريعة اليهودية ؛ وكانوا يرتابون فى عقيدة الكلمة ويعدونها ارتداداً عن عقيدة التوحيد ، كما كانوا يرون فى هيام فيلو بالفلسفة اليونانية نذيراً بضياع ثقافتهم ، وفقدان الجزء الأكبر من خصائصهم العنصرية ، وما ينشأ عن هذا وذاك من اختفاء اليهود المشتتين فى بقاع الأرض . ولكن آباء الكنيسة المسيحية كانوا يعجبون بورع هذا الرجل اليهودى المنبعث عن تفكير عميق ، وكثيراً ما كانوا يلجئون إلى آرائه وتعبيراته المجازية ليردوا بها على من يتصدون لنقد التوراة العبرية ، وانضموا إلى جماعة العارفين(*) ورجال الأفلاطونية الحديثة فى القول بأن رؤيا الله الصوفية هى أسمى ما تصل إليه المحاولات البشرية . ولقد حاول فيلو أن يوفق بين اليهودية والفلسفة الهلينية ؛ فأما من وجهة النظر اليهودية فقد أخفق فى مسعاه ، وأما من وجهة النظر التاريخية فقد أفلح ، وكانت ثمرة فلاحه هى الإصحاح الأول من إنجيل يوحنا .

(*) هم طائفة من المسيحيين يعتقدون بأن الخلاص يكون عن طريق المعرفة لا عن طريق الإيمان . (المترجم)

الفصل الثالث

تقدم العلوم

كانت الإسكندرية زعيمة العالم الهلنستى فى العلوم لا ينازعها فى هذه المكانة منازع ، ومن أكبر علمائها فى ذلك العصر كلوديوس بطليموس الذى يعد بلا جدال من أعظم علماء الفلك الأقدمين ، وذلك لأن العالم لا يزال على الرغم من كشوف كوپرنيق يتكلم فى الفلك بلغة بطليموس . وكان مولد هذا العالم فى بلدة بطليموئيس على شاطئ النيل (ومنها اشتق اسمه) ، ولكنه عاش معظم حياته فى الإسكندرية ، وظل يرصد فيها الأجرام السماوية من عام ١٢٧ م إلى عام ١٥١ . وأهم ما يذكره به العالم أنه رفض نظرية أرستاركس القائلة بأن الأرض تدور حول الشمس . وقد دونت هذه الفلسفة الخالدة فى كتاب بطليموس المعروف باسم **النظام الرياضى** Mathematiké Syntaxis للنجوم . وكان العرب إذا تحدثوا عنه نعتوه باسم التفضيل اليونانى المجسطى Al-megisté « الأعظم » . وحرف الناس فى العصور الوسطى هذا اللفظ فصار الماجست Almagest وهو الاسم الذى يعرف به الكتاب فى التاريخ . وظلت لهذا الكتاب السيطرة على السماء حتى قلب كوپرنيق العالم رأساً على عقب . ومع هذا فإن بطليموس لم يدع أنه فعل أكثر من تنظيم أعمال من سبقوه من علماء الفلك وأرصادهم ، وأخصهم بالذكر هپاركس . وقد صور الكون فى شكل كرى يدور مرة فى كل يوم حول أرض كرية ثابتة لا تتحرك . ومع أن هذا القول يبدو لنا غريباً (وإن كنا لا نعرف ما سوف يفعله كوپرنيق آخر فى المستقبل ببطالستنا المحدثين) ، فإن النظرية القائلة بأن الأرض مركز الكون قد يسرت فى ضوء

المعلومات الفلكية المعروفة فى ذلك العصر تحديد مواضع النجوم والكواكب تحديداً أدق مما كانت تستطيعه النظرية القائلة بأن الشمس هى مركز العالم(٢٠).

وعرض بطليموس فوق هذا لنظرية « الانحرافات » ليفسر بها أفلاك الكواكب ، واستطاع أن يكشف انحراف فلك القمر . وقاس بعد القمر عن الأرض بطريقة الزيغان(*) التى لا تزال مستخدمة إلى يومنا هذا ، وقدر هذا البعد بما يعادل نصف قطر الأرض تسعا وخمسين مرة ، وهو يعادل تقديرنا الحاضر بوجه التقريب ؛ وإن كان بطليموس قد اتبع پسيدونيوس فى تقدير طول قطر الأرض بأقل من طوله الحقيقى

وقد لخص بطليموس فى كتابه **الموجز الجغرافى** جميع ما كان يعرفه الأقدمون عن سطح الأرض ، كما لخص **فى نظام الرياضى** ما كانوا يعرفونه فى الفلك وصاغه فى صيغته الأخيرة . وهنا أيضاً أخطأ أخطاء جسيمه فى أزياجه التى بذل فيها جهداً كبيراً ، والتى حدد فيها خطوط الطول ودوائر العرض لكبريات المدن على سطح الأرض ؛ وكان سبب هذا الخطأ قبوله تقدير پسيدونيوس حجم الأرض بأقل من حقيقته . ولكن هذه الغلطة المشجعة التى نقلها عنه بطليموس هى التى يرجع إليها الفضل فى اعتقاد كولمبس أن من المستطاع الوصول إلى جزائر الهند فى وقت قصير بالسير فى اتجاه الغرب(٢١) . وكان بطليموس أول من استعمل لفظى « متوازيات » (Rarallels) و « خطوط الزوال » merdians علم الجغرافية ، وقد نجح فى أن يصور على خرائطه جسما كرياً على سطح مستو . ولكنه كان فى الواقع عالماً رياضياً أكثر منه فلكياً أو جغرافيا ؛ وكان أهم جزء من عمله هو صياغته للقوانين الرياضية . وقد وضع فى كتاب **النظام** زيجا دقيقاً

(*) Parallax ويسميها اسماعيل الفلكى اختلاف المنظر وهو الانتقال الظاهر للكواكب إذا تغير موضع الناظر إليه على سطح الأرض . (المترجم)

لقياس الأقواس ، وذلك بأن قسم نصف قطر الأرض ستين قسما أولى صغيرة Partes minutae primal هى التى صارت الدقائق عندنا ، ثم قسم كل واحدة من هذه الدقائق « أقساماً صغيرة ثانية » هى « الثوانى » عندنا .

ووقع بطليموس فى أخطاء كثيرة ، ولكنه كان له بلا ريب مزاج العلماء الحقيقيين وصبرهم . وقد حاول أن يعتمد فى استنتاجاته على الأرصاد وقلما كان هو صاحبها . وقد قام فى أحد الميادين بسلسلة طويلة من التجارب ، ووُصف كتابه البصريات Optica — وهو دراسة فى انكسار الضوء — بأنه « أعظم البحوث التجريبية فى التاريخ القديم »(٢٢) . ومما هو جدير بالذكر أن هذا الرجل الذى يعد من أعظم العظماء فى الفلك والجغرافية والرياضيات فى عصره قد كتب أيضاً « أربعة كتب » Tetrabiblios فيما للنجوم من سلطان على حياة بنى الإنسان .

وفى هذه الأثناء كان أرخميديز أصغر يهيئ للعالم القديم فرصة ثانية للقيام بانقلاب صناعى . وكان هذا الرجل مخترعاً أو جامعاً بارعاً وإن كنا لا نعرف عنه إلا اسمه الوحيد هيرون Hero . وقد أصدر هذا الرجل وقتئذ(*) فى الإسكندرية سلسلة من الرسائل فى الرياضة والطبيعة ، بقى لنا عدد منها مترجماً إلى اللغة العربية . وقد حذر قراءه فى صراحة بأن النظريات والاختراعات التى يعرضها عليهم ليست كلها من اختراعه ، بل إنها قد تجمعت على مدى القرون الطوال . ووصف فى كتابه الديوپترا Dioptra آلة شبيهة بالمزواة theodolite وصاغ عدداً من القوانين لقياس الأبعاد التى بين الإنسان وبين النقط التى لا يستطيع الوصول إليها ومساحة هذه الأبعاد . وبحث فى كتابه الحيل Mechanica فى طريقة استخدام أدوات

(*) وهناك خلاف فى تاريخ هذا العالم ، فيولى — وسوفا Pauly-Wissowa يحدده بعام ٥٠ ق . م ، بينا يحدده هيبيرج Heiberg ، وديل Diels ، وهيث Heath بحوال ٢٢٥ م (٢٣).

سهلة ، والجمع بينها ؛ ومن هذه الأدوات العجلة ، ومحورها ، والرافعة ، والبكرة والإسفين ، واللولب . ودرس فى كتابة الهوائيات Pneumatica ضغط الهواء فى سبع وثمانين تجربة معظمها من الحيل والألاعيب ؛ منها أنه عرض كيف يمكن جعل كل من النبيذ أو الماء يخرج من فتحة صغيرة واحدة فى قاع وعاء وذلك بسد ثقب أو آخر فى أعلى الوعاء المقسم قسمين .

ثم تدرج من هذه اللعب المسلية لصنع مضخة رافعة ، ومضخة لآلة إطفاء الحريق ذات مكبس وصمامات ، وساعة مائية ، وأرغن مائى ، وآلة بخارية . وفى هذا المخترع الأخير كان البخار الناشئ من الماء المسخن ينتقل من خلال أنبوبة إلى كرة تدور فى اتجاه مضاد لاتجاه البخار المطرود . وقد حال إحساس هيرون الفكاهى الشديد بينه وبين ترقية هذا المخترع حتى يمكن الاستفادة منه فى الأغراض الصناعية . ومن أعماله أيضا أنه استخدم البخار لوقف كرة فى الهواء ومنعها من السقوط ، وجعل طائر آلى يغرد ، وتمثال ينفخ فى بوق . ودرس فى كتابه المرايا Catoptrica انعكاس الضوء ، وشرح كيف تصنع المرايا التى يستطيع الناظر فيها أن يرى ظهره ، أو يظهر فيها ورأسه إلى أسفل ، أو له ثلاث أعين ، أو أنفان الخ . وعلم المشعوذين كيف يقومون بالألعاب بأجهزة مخبأة عن الأعين . وقد جعل الماء يخرج من حوض إذا وضعت قطعة من النقود فى فتحة فيه . وصنع آلة مخبأة تجعل الماء المسخن يفيض إلى جردل ، ويفتح أبواب هيكل بما يزيد من وزنه ، وبوساطة مكبرات . وبفضل هذه الأساليب وما ئة أخرى من نوعها استطاع هيرون أن يكون مشعوذاً بارعا ، ولكنه عجز عن أن يكون مخترعا من طراز جيمس وت James Watt .

وكانت الإسكندرية منذ زمن بعيد أهم مركز لدراسة الطب . نعم إنه كانت فى مرسيليا ، وليون ، وسرقسطة ، وأثينة ، وانطاكية ، وكوس ،

وإفسوس ، وأزمير ، وبرجموم مدارس طب شهيرة ، ولكن طلاب الطب كانوا يهرعون إلى الإسكندرية من جميع ولايات الإمبراطورية ، بل إنا لنجد أميانس مرسلينس Ammianus Marcellinus فى القرن الرابع الميلادى ، حين أخذت مصر تسير فى طريق الاضمحلال ، يتحدث عن الإسكندرية بقوله :

« حسب الطبيب تنويها ببراعته أن يقول إنه قد تعلم فى الإسكندرية »[٢٤] .

وكان التخصص فى الطب يسير قدما ، وشاهد ذلك ما يقوله فلستراتس (حوالى ٢٢٥ م) : « لا يستطيع إنسان أن يكون طبيبا لكل مرض ، بل يجب أن يكون هناك إخصائيون فى الجروح ، والحميات ، والعيون ، والسل »[٢٥] . وكان تشريح الجثث الميتة يحدث فى الإسكندرية ، ويبدو أنه كان يجرى فيها أيضاً تشريح للأحياء[٢٦] .

ولم تكن الجراحة فى القرن الأول الميلادى أقل رقيا فى الإسكندرية منها فى أى مكان فى أوربا قبل القرن التاسع عشر . ولم تكن الطبيبات نادرات ؛ وقد كتبت واحدة منهن تدعى مترودورا Metrodora رسالة فى أمراض الرحم لا تزال باقية إلى اليوم[٢٧] . ويزدان تاريخ الطب فى هذا العصر بأسماء عظيمة : منها روفس الإفسوسى الذى وصف تشريح العين ، وميز أعصاب الحركة من أعصاب الحس ، وحسن طرق وقف النزيف فى الجراحة ، ومنها مرينس Marinus الإسكندرى الذى اشتهر بجراحات الجمجمة ، وأنتيلس Antylus أعظم الرمديين فى عصره . وقد كتب ديوسكريديز Dioscorides الفليقيائى (٤٠ — ٩٠م) كتابا فى العقاقير وصف فيه وصفا علميا ستمائة من النباتات الطبية وصفاً بلغ من الدقة حداً جعل كتابه هذا أهم مرجع فى موضوعه حتى عصر النهضة الأوربية . وقد أوصى فى هذا الكتاب باستخدام « الصوفات » لمنع الحمل[٢٨] . وقد استُخدم للتخدير وصفه لنبيذ البيروح mandragora استخداماً ناجحا فى عام ١٨٧٤ .

ونشر سورانس الإفسوسى حوالى عام ١١٦ م رسالة فى أمراض النساء، وفى مولد الأطفال والعناية بهم ، ولا يعلو عن هذه الرسالة من المؤلفات الطبية القديمة الباقية إلى اليوم سوى مجموعات أبقراط ومؤلفات جالينوس . ويصف المؤلف فيها منظاراً مهبليا وكرسيا للتوليد ، ويصف الرحم من الناحية التشريحية أجود وصف ، ويقـــدم نصائح عملية وغذائية لا تكاد تختلف عما يقدمه الأطباء فى هذه الأيام ، منها غسل عينى الطفل الحديث الولادة بالزيت[٣٠] ، ويذكر أسماء نحو مائة وسيلة لمنع الحمل معظمها أدوية للمهبل[٣١] ، وهو يجيز الإجهاض إذا كان الوضع يعرض حياة الأم للخطر (على عكس ما يراه أبقراط)[٣٢] .

وقصارى القول أن سورانس كان أعظم الإخصائيين فى طب النساء فى الزمن القديم ، ولم يفقه أحد فى هـــذا العلم حتى جاء پاريه Parê بعده بخمسة عشر قرنا ؛ ولو أن رسائله الأربعين قد بقيت إلى هذه الأيام لوضعناه فى أكبر الظن فى منزلة جالينوس .

وكان أعظم أطباء ذلك العصر ابن مهندس معمارى من برجموم ، وقد سماه جالينوس Galenus أى الهادئ المسالم ، لأنه كان يأمل ألا يتخلق بأخلاق أمه[٣٣] . ولما بلغ الشاب الرابعة عشرة من عمره شغف لأول مرة بالفلسفة ، ولم يتحرر قط من غوايتها الخطرة ؛ وفى السابعة عشرة تحول عنها إلى الطب ، ودرسه فى قليقية ، وفينيقية ، وفلسطين وقبرص ، وكريد، وبلاد اليونان ، والإسكندرية (وكان هذا الانتقال فى طلب العلم من طبيعة العلماء الأقدمين) ، ثم اشتغل جراحا فى مدرسة المجالدين فى برجموم ، ومارس صناعته فترة من الزمن (١٦٤ — ١٦٨ م) فى رومة ؛ وفى هذه المدينة أقبل عليه أغنياء المرضى لنجاحه فى صناعته ، كما أقبل عليه كثيرون من علية القوم ليستمعوا إلى محاضراته ، وذاعت شهرته ذيوعا جعـــل الناس يكتبون إليه من كافة الولايات يطلبون إليه النصائح الطبية ، فكان يصف لهم العلاج الناجع بالبريد ، وكان والده الصالح قد نسى ما كان

يدور بخلده حين اختار له اسمه قنصحه ألا ينضم إلى شيعة أو حزب ، وأن يكون صادقا فى كل ما يقول ، وصدع جالينوس بأمر أبيه ، وأخذ يشهر بجهل كثيرين من أطباء رومة وشرههم حتى اضطر بعد سنين قلائل إلى الفرار من أعدائه . ولكن ماركس أورليوس استدعاه ليعنى بكمودس الصغير (١٦٩) ، وحاول أن يأخذه معه فى إحدى الحملات المركونية ، ولكن جالينوس كان من الدهاء بحيث استطاع أن يعود مسرعا إلى رومة . ومن هذا الوقت لا نعرف عنه غير مؤلفاته .

وتكاد هذه المؤلفات أن تبلغ من الكثرة ما بلغته مؤلفات أرسطو ، وقد بلغت خمسمائة أو نحوها ، وبقى منها ١١٨ كتابا تحوى عشرين ألف صفحة ، تشتمل على جميع فروع الطب وعلى عدد من ميادين الفلسفة ، وليس لهذه الكتب قيمة طبية فى هذه الأيام ، ولكنها تشتمل فى مواضع منها متفرقة على معلومات نافعة ، وتكشف عن روح قوية ذات حيوية عظيمة ، مولعة بالبحث والجدل . وقد عوده ولعه بالفلسفة عادة سيئة هى استخلاصه نتائج كبرى من معلومات قليلة ، وكثيراً ما ساقه إيمانه بعلمه وقواه إلى تعسف لا يليق بعقلية العلماء ، وكان سلطانه على من جاء بعده سببا فى بقاء أخطائه الشنيعة ذائعة قروناً عدة . لكنه كان على رغم هذه الأخطاء دقيق الملاحظة ، كما كان أكثر الأطباء الأقدمين اعتماداً على التجارب العملية . ومن أقواله فى هذا المعنى : « إنى لأعترف بذلك المرض الذى قاسيت منه الأمرين طوال حياتى — وهو أنى لا أثق ... بأى قول حتى أجربه بنفسى على قدر استطاعتى »[٣٤] . ولما حرمت عليه الحكومة الرومانية أن يشرح أجسام الآدميين أحياء كانوا أو أمواتاً ؛ عمد إلى تشريح الحيوانات الحية والميتة ، وكثيراً ما كان يتعجل فيطبق على تشريح الجسم الآدمى ما تسفر عنه دراسته للقردة ، والكلاب ، والبقر ، والخنازير .

وقد أفاد علم التشريح من جالينوس رغم قصوره أكثر مما أفاده من أى

مُشاهد آخر فى التاريخ القديم ؛ ذلك أنه وصف بغاية الدقة عظام الجمجمة والعمود الفقرى ، والجهاز العضلى ، والأوعية اللبنية ، والغدة اللسانية ، والغدة اللعابية تحت الفك الأسفل ، وصمامات القلب ؛ وأثبت أن القلب إذا فصل عن الجسم يمكن أن يظل ينبض فى خارجه ، وبرهن على أن الأوردة تحتوى دما لا هواء (كما ظلت مدرسة الإسكندرية تعلم الناس مدى أربعمائة عام) . لكنه قد فاته أن يسبق هارفى إلى كشف الدورة الدموية ، فقد ظن أن معظم الدم يسير فى الأوردة إلى أجزاء الجسم المختلفة ثم يعود فيها أيضاً ؛ وأن البقية الباقية منه التى تختلط بهواء الرئتين تسير فى الشرايين إلى أجزاء الجسم وتعود منها فى الشرايين نفسها . وكان هو أول من شرح الجهاز التنفسى ، ودل على حصافة وبراعة حين قال إنه يظن أن العنصر الفعال فى الهواء الذى نستنشقه هو نفسه العنصر الفعال فى الاحتراق[٣٥] ؛ وميز التهاب الرئة ، ووصف الورم الوعائى(*) ، والسرطان ، والتدرن ، وعرف ما فى ثانيهما من خطر العدوى . وأهم من هذا كله أنه وضع أساس مبحث الأعصاب التجريبى ؛ فهو أول من أجرى التجارب على قطاعات من النخاع الشوكى ، وعين الوظيفة الحسية والحركية لكل جزء منه ، وعرف الأعصاب السمپتاوية ، وميز سبعة أزواج من الاثنى عشر زوجاً من أعصاب الجمجمة ، وعرف كيف يستطيع حبس النطق بقطع عصب الحنجرة ، وبرهن على أن الضرر الذى يصيب أحد نصفى المخ يحدث اختلالا فى النصف المضاد له من الجسم ، وعالج السفوفسطائى پوسنياس من خدر فى خنصر يده اليسرى وبنصرها بتنبيه الضفيرة العضدية التى يخرج منها العصب الزندى الذى يتحكم فى هاتين الإصبعين[٣٦] . وقد برع فى بحث أعراض الأمراض براعة آثر معها أن يشخص علة المريض

(*) اتساع أو تمدد يشمل طبقة أو جميع الطبقات من محيط وعاء دموى (قاموس الدكتور شرف) . (المترجم)

دون أن يوجه إليه أسئلة[٣٧] . وكان كثير الاعتماد على التغذية ، والرياضة ، والتدليك ولكنه كان خبيراً فى العقاقير ، كثير الأسفار للحصول على الأدوية ، النادرة . ونادد باستخدام البراز والبول فى العلاج ، وكان ذلك لا يزال شائعاً عند بعض معاصريه[٣٨] ، وأوصى باستعمال الكداس الجاف(*) لعالجة المغص ، ووضع روث المعز على الورم ، وترك ثبتاً طويلا بالأمراض التى يمكن علاجها بالترياق(**) — وهو دواء ذائع الصيت فى ذلك الوقت صنع لمثرداتس الأكبر ليقاوم به السم ، وكان يقدم لماركس أورليوس كل يوم ويدخل فيه لحم الأفاعى[٣٩] .

لكنه لوث سجله الحافل بالتجارب وشهرته فيها بسيل من النظريات التى تعجل فى وضعها . وكان يسخر من السحر والرقى ، ويقبل التنبؤ بالغيب عن طريق الأحلام ، ويظن أن أوجه القمر تؤثر فى أحوال المرضى ؛ وصدق فكرة أبقراط عن الأخلاط الأربعة (الدم ، والبلغم ، والسائل الصفراوى الأسود الأصفر)(†) ، وعمل على سرعة انتشار عقيدة فيثاغورس فى الأركان (العناصر) الأربعة (التراب ، والهواء ، والنار ، والماء) ، وحاول أن يرد الأمراض كلها إلى اختلال فى تلك الأخلاط أو هذه الأركان . وكان قوى الاعتقاد بوجود الروح ، مؤمناً بأن النفس (pneuma) أو النفس الحيوى أو الروح تسرى فى كل جزء من أجزاء الجسم ، وتبعث فيه النشاط والحركة . وكان كثيرون من الأطباء قد أخذوا يفسرون نظريات علم الأحياء تفسيراً آلياً ؛ ومن هؤلاء أسكليبياديز الذى كان يرى أن علم وظائف الأعضاء يجب أن ينظر إليه على أنه فرع من الطبيعة ؛ ولكن جالينوس اعترض على هذه الفكرة ؛ وقال إن الآلة ليست إلا مجموعة

(*) بق متجانس الأجنحة .

(**) يسمى أيضاً الدرياق ، والدرياج ، والطرياق واللفظ يونانى معرب (شرف) .

(†) لقد عاد الطب الحديث يؤكد شدة أهمية إفرازات الغدد

أجزائها ، وأما الكائن العضوى فإنه يشتمل أيضاً على الإشراف الغائى على جميع أجزاء الكل . وكما أن الغاية وحدها هى التى يمكن بها تفسير منشأ الأعضاء وتركيبها ، ووظيفتها ؛ فكذلك يرى جالينوس أن الكون لا يمكن أن يفهم إلا على أنه تعبير عن خطة إلهية وأداة لتنفيذ هذه الخطة . لكن الله لا يعمل إلا بوساطة قوانين طبيعية ، وعلى هذا ليس ثمة معجزات ، وخير وحى هو الطبيعة نفسها .

وأحب المسيحيون جالينوس لإيمانه بالغائية وبالوحدانية فى الدين ، كما أحبه المسلمون بعدئذ لهذا السبب عينه ؛ وقد فقدت أوربا كل كتاباته تقريباً فى أثناء الفوضى التى أعقبت غزوات البرابرة ، ولكن علماء العرب حفظوها لبلاد الشرق ، ثم ترجمت هذه المؤلفات من اللغة العربية إلى اللاتينية فى القرن السابع والقرون التى تلته ، وأصبح جالينوس بعدئذ المرجع المعترف به الذى لا يوجه إليه نقد ، فكان هو أرسطو الطب فى العصور الوسطى .

واختتم آخر عصر مبدع من عصور العلم اليونانى ببطليموس وجالينوس ، ومن بعدهما انتهى عصر التجارب وساد عصر العقائد التحكمية ، وانحط علم الرياضة فأصبح مجرد ترديد للهندسة ، كما انحط علم الأحياء فأصبح ترديداً لأقوال أرسطو ، وانحطت العلوم الطبيعية فأصبحت ترديداً لأقوال بلنى ، ووقف الطب جامداً حتى جاء أطباء العرب واليهود فى العصور الوسطى فجددوا هذا العلم الذى يعد أشرف العلوم على الإطلاق .

الفصل الرابع

الشعراء فى الصحراء

تقع بلاد العرب فى الناحية الشرقية من البحر الأحمر ، وقد عجز الفراعنة ، والأكمينيوم ، والسلوقيون ، والبطالمة ، والرومان عن فتح تلك الجزيرة الغامضة العجيبة ، ولذلك ظلت صحراء العرب لا تعرف إلا العرب البدو . لكن فى جزئها الجنوبى الغربى سلسلة جبلية تسيل فيها عدة مجار مائية فتلطف حرارتها ، وتنبت فيها أشجار الفاكهة وتخلق منها بلاد العرب السعيدة Arabia Felix أو بلاد اليمن كما يسمونها فى هذه الأيام . وقد قامت فى خبايا تلك البلاد مملكة سبأ الصغيرة التى ورد ذكرها فى التوراة(*) ، والتى يكثر فيها الكندر ، والمر ، والقشية (خيار شنبر) ، والقرفة ، والصبر ، والنردين ، والسنا المكى ، والصمغ ، والحجارة الكريمة . وقد استطاع أهلها أن يشيدوا عند مأرب وغيرها من الأماكن مدناً تزهو بهياكلها ، وقصورها ، وأروقتها المعمدة(٤٠) . ولم يكتف تجار العرب بأن يبيعوا محصولات بلادهم بأغلى الأثمان ، بل كانوا يسيرون فيها القوافل التجارية إلى بلاد شمالى آسية الغربى ، وكانت لهم تجارة بحرية نشيطة مع مصر ، وپارثيا ، وبلاد الهند . وبعث أغسطس إيليوس جالس فى عام ٢٥ ق . م ليضم تلك المملكة إلى الإمبراطورية الرومانية ، ولكن فيالقه عجزت عن الاستيلاء على مأرب وعادت إلى مصر بعد أن قضت الأوبئة وشدة الحرارة على عدد كبير من رجالها . وحينئذ اكتفى أغسطس بتدمير مرفأ أدانا (عدن) العربى ، فأمن بذلك التجارة بين مصر والهند .

وكان أهم الطرق التجارية الممتدة من مأرب إلى الشمال يخترق الطرف الشمالى

(*) والقرآن . (المترجم) .

الغربى من جزيرة العرب ، المعروف عند الأقدمين باسم بلاد العرب البطرية نسبة إلى عاصمتها بطرة التى تبعد عن أورشليم بنحو أربعين ميلا جهة الجنوب . وكان السبب فى إطلاق هذا الاسم على المدينة أنها كانت قائمة وسط دائرة من الصخور الوعرة جعلتها أمنع من عقاب الجو . وفى هذا الجزء أقام العرب فى القرن الثانى مملكة أخذت تزداد ثراء على مر الأيام حتى امتد سلطانها من لوس كوم Leuce Come على البحر الأحمر إلى دمشق ، واشتملت على الجزء المصاقب لحدود فلسطين الشرقية وجراسا Gerasa وبُصرى . وبلغت هذه المملكة ذروة مجدها تحت حكم الملك أرتاس الرابع Aretas (٩ ق . م — ٤٠ م) ، وأضحت بطرة أيامه بلدة هلنستية ، لغتها آرامية ، وفنها يونانى ، وشوارعها فى عظمة شوارع الإسكندرية ؛ وتنتمى إلى هذا العصر القبور الضخمة المنقورة فى الصخور القائمة فى خارج المدينة ، وهى ذات واجهات ساذجة خشنة ولكنها تنبئ عن القوة ، وعمد يونانية مزدوجة ، يبلغ ارتفاعها فى بعض الأحيان مائة من الأقدام . وبعد أن ضم تراجان المملكة الشمالية إلى إمبراطوريته (١٠٦) جعل بُصرى عاصمة ولاية بلاد العرب ، فشادت تلك المدينة العمائر التى ترمز إلى ثرائها وسلطانها . واضمحلت بطرة بعد أن أصبحت طرقَ القوافل التجارية تلتقى عند بصرى وتدمر Palmyra ، وانحط شأن المقابر العظيمة حتى أضحت « مذاود ليلية لقطعان البدو »[٤١] .

وكان أبرز مظاهر الإمبراطورية العظيمة كثرة مدائنها العامرة بالسكان ، ولم تنشأ مدن فى عصر من العصور التالية لذلك العصر ، إذا استثنينا القرن الحالى ، بالكثرة التى أنشئت بها فى ذلك العهد ، فقد كان لوكلس ، وپمپى ، وقيصر ، وهيرود ، والملوك الهلنستيون ، والأباطرة الرومان يفاخرون بما ينشئون من المدن الجديدة وبتزيين المدن القديمة ، حتى لقد كان يصعب على الإنسان وهو ينتقل نحو الشمال محاذيا للشاطئ الشرقى للبحر الأبيض المتوسط ، أن يسير عشرين ميلا

دون أن تلقاه مدينة رفح (رافيا) ، وغزة ، وعسقلان ، ويافا (چپا) ، وأپلونيا ، والسامرة ، وقيصرية . وكانت هذه المدن رغم وجودها فى فلسطين نصف يونانية فى سكانها ، تسودها لغة اليونان وثقافتهم وأنظمتهم . فكانت — والحالة هذه — بمثابة جسور تنتقل عليها الهلنستية فى غزوها الوثنى لبلاد اليهود . وأنفق هيرود أموالا طائلة فى جعل مدينة قيصرية خليقة بأغسطس الذى سميت باسمه ، فأنشأ لها مرفأ صالحا جميلا ، ومعبداً شامخاً ، وملهى ومدرجاً ، وأقام فيها قصوراً فخمة وصروحا كثيرة من الحجر الأبيض »(٤٢) . وأنشئت فى داخل البلاد مدن أخرى يونانية فلسطينية — ليڤياس Livias ، وفلادلفيا ، وچراسا ، وجندارا (قطرة Katra) : وفى چراسا مائة عمود هى كل ما بقى من العمد التى كانت قائمة على جانبى شوارعها الرئيسية ؛ وإن خرائب هياكلها ، وملهاها ، وحماماتها ، ومجرى مائها لتنطق بما كانت عليه المدينة من الثراء فى القرن الثانى بعد الميلاد .

وكانت جدارا ، التى تتردد فى خرائب ملهاها صدى ذكريات المسرحيات اليونانية ، تشتهر بمدارسها ، وأساتذتها ، ومؤلفيها . وفيها عاش فى القرن الثالث قبل الميلاد منيپس Menippus الفيلسوف والفكاهى الكلبى الذى يعلم بهجائه أن كل شىء عدا الحياة الصالحة باطل ، والذى كان مثالا احتذاه لوسليوس ، وڤارو ، وهوراس . وفى هذه المدينة « أثينة سوريا » أنشأ مليجر ، أنكريون زمانه ، قبل ميلاد المسيح بنحو ألف عام تلك المقطوعات الشعرية المصقولة التى كان يتغزل فيها بجمال النساء والغلمان . وظل يكتب قصائد الحب حتى كلّ قلمه :

« ما أحلى ابتسام الكأس للحبيب العزيز ، بعد أن مسها فم زنوفيلا Zenophila الجميل . وما أسعدنى إذا وضعت شفتيها الورديتين على شفتى ، وعبت روحى عبا فى عناق طويل »(٤٣) .

وكان لهيب من هذا النوع ، خبا قبل الآوان ، يشتعل قويا فى ذاكرته - ذلك هو هليودورا Heliodora التى أحبها فى صور .

سأجدل البنفسج الأبيض ، والآس الأخضر ؛ سأجدل النرجس ، والزنبق اللامع ؛ سأجدل الزعفران الحلو ، والسنبل البرى الأزرق ؛ وسأجدل آخر الأمر الورد رمز الحب الأكيد ، حتى يتألف منها جميعاً تاج من الجمال خليق بأن يزين غدائر هليودورا الحلوة(٤٤). والآن وقد اختطفها الموت ولوث الثرى زهرتها الناضرة ، فإنى أتوسل إليك يا أمنا الأرض أن تكونى رحيمة حين تضمينها إلى صدرك »(٤٥) .

وقد خلد مليجر اسمه بأن جمع فى « إكليل » (Stéphamos) ما قاله شعراء اليونان فى الرثاء من أيام سافو Sapphs إلى أيام مليجر . ومن هذه المجموعة وأمثالها من المجموعات نشأت دواوين الشعر اليونانى(*) . وفيها نجد أحسن المقطوعات الشعرية وأسوأها ، فمنها ما هو مصقول كصقل الجواهر ، ومنها ما هو أجوف كالألغاز . ولم يكن من الحكمة أن تقطف هذه « الأزهار » الأربعمائة من غصونها ليصنع منها التاج الذابل .

ومن هذه الأبيات ما يحيى ذكرى بعض الموتى من عظماء الرجال ، ومنها ما يخلد ذكرى تماثيل مشهورة ، أو أقارب فارقوا هذه الدار . ومنها قبريات ذاتية ، إذا صح ذلك التعبير . فقد كتبت امرأة ، ماتت وهى تلد ثلاثة أطفال فى وقت واحد ، تقول تلك القالة السديدة : « وبعد هذا فلتطلب النساء

(*) وقد ضم « إكليل » مليجر فى القرن السادس الميلادى إلى ديوان شعر كله تغزل فى الغلمان جمعه استرابون السرديسى (٥٠ ق . م) . وضمت إليه فيما بعد مقطوعات أخرى ، معظمها من أشعار المسيحيين . وأخذ ديوان الشعر اليونانى شكله الذى هو عليه الآن فى القسطنطينية حوالى عام ٩٢٠ م .

الأبناء »[٤٦] . ومنها ما هو سهام موجهة إلى صدور الأطباء ، والنساء السليطات ، ومجهزي الموتى للدفن ، ومعلمى الأحداث ، والديوثين ؛ أو إلى صدر البخيل الذى أفاق من إغماءة لما شم رائحة فلس ؛ أو النحوى الذى ظهو حفيد له ذكراً ثم أنثى ثم شيئا آخر هو ذكر وأنثى معاً[٤٧] ؛ أو الملاكم المحترف الذى اعتزل حرفته ، وتزوج ، فكالت له زوجته ضربات أكثر مما كانت تكال له فى حلبة الملاكمة ؛ أو القزم الذى اختطفته بعوضة فظن أنه يعانى الآلام من اختطاف جنميدى . وثمة مقطرعة تشيد بمدح « المرأة الشهيرة التى لم تضاجع إلا رجلاً واحداً » ؛ ومقطوعات أخرى تقدم بها القرابين للأرباب : ففى واحدة منها تعلق ليس Lais مرآتها بعد أن أصبحت عديمة النفع لأنها لا تظهرها بالصورة التى كانت عليها من قبل ؛ وفى أخرى نرى نيسياس Nicias تسلم راضية منطقتها إلى ڤينوس بعد أن قضت فى خدمة الرجال خمسين عاما . وتمجد بعض المقطوعات أثر النبيذ فى توسيع الشرايين وتقول إن هذا أحكم من الحكمة ؛ ومنها واحدة تمجد الزانى الذى يجمع فى وقت واحـــد بين اثنتين والذى دفن تحت الأنقاض بين ذراعى عشيقته ؛ ومنها مراثى وثنية تصف قصر الحياة ؛ ومنها توكيدات مسيحية ليومَ البعث السعيد . ومعظمها ، بطبيعة الحال ، يمتدح جمال النساء والغلمان ، ويتغنى بنشوة الحب الموجعة . وإنك لتجد هنا كل ما ورد فى الأدب بعد ذلك العصر عن آلام العاشقين وتجده موجزاً كاملا ، فيه من الأفكار أكثر مما فى الشعر الأنجليزى فى عصر إليزابث . من ذلك أن مليجر يتخذ بعوضة قوّادة له ، ويحملها رسالته إلى الســـيدة التى كان يحبها فى تلك الساعة . وهاهو ذا فلوديمس Philodemus ابن بلدته ، والفيلسوف الذى يســـدى النصح لشيشرون ، يغنى لمحبوبته زنثو Xantho أغنية حزينة فيقول :

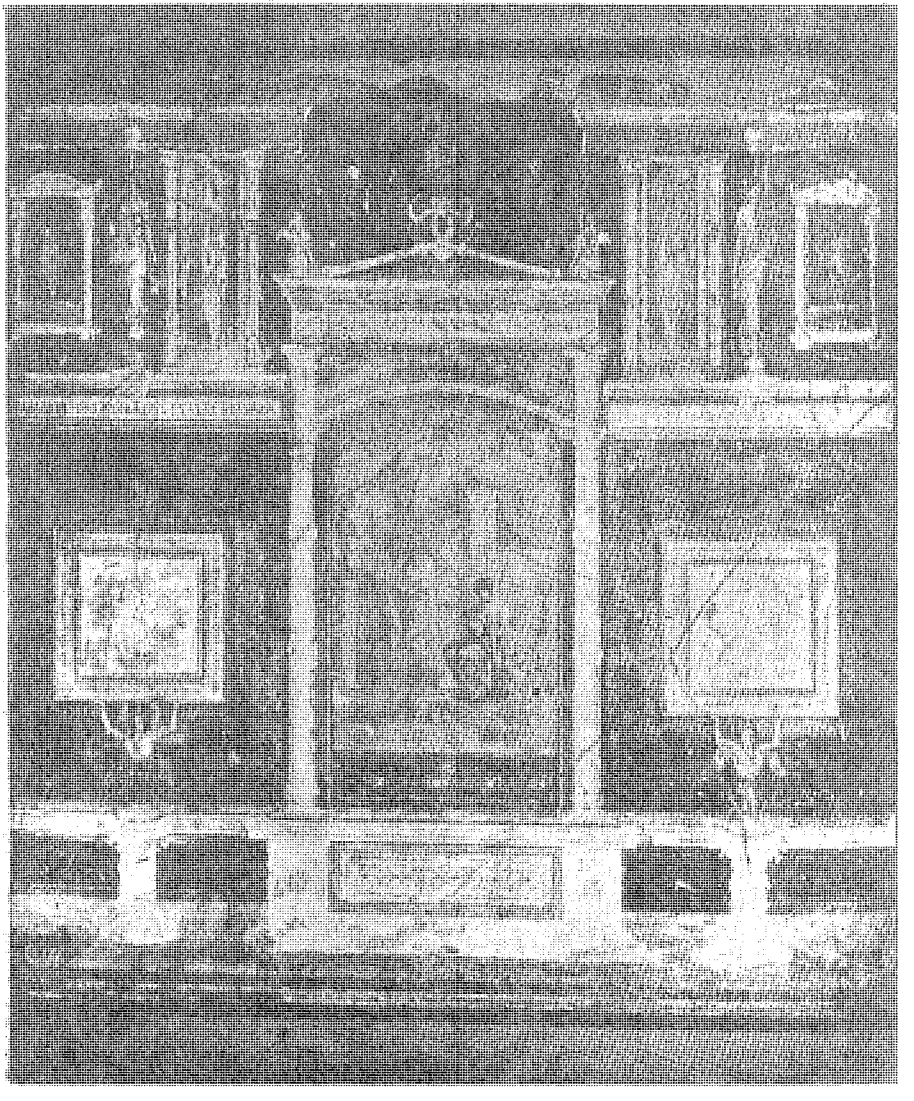

(شكل — ٧) نقش جدارى من بيت فرنتزيا الريق (متحف ترى بروما)

يا ذات الخدين الأبيضين كلون الشمع ، والصدر الناعم ذى العطر الشجى ، والعينين اللتين تعشش فيهما ربات الفن ، والشفتين الحلوتين اللتين تفيضـــان بأكمل اللذات . . . غنى لى أغنيتك يا زنثو يا ذات الوجه الشاحب غنى . . . ما أسرع ما تنقطع الموسيقى . أعيدى المنغمة الحلوة الحزينة مرة بعد مرة ، ومنى الوتر بأصابعك العطرة ، يا بهجة الحب ، يا زنثو الشاحبة ، غنى[٤٨] .

الفصل الخامس

السوريون

تقوم على شاطئ البحر الأبيض المتوسط فى جزئه الشمالى مدن فينيقية القديمة التى كانت هى وفلسطين جزءاً من ولاية سوريا الرومانية . وقد ظلت هذه المدن حية طوال الحقبة التى دامت ألف عام مليئة بالأحداث الجسام وذلك بفضل عمالها المجدين البارعين فى الصناعات اليدوية ، وبفضل موقعها الذى جعل فيها على مر الأيام مرافئ تجارية هامة ، وتجارها المهرة الأغنياء الذين كانوا يرسلون سفنهم وعمالهم إلى كل مكان معروف على ظهر الأرض . وكان فى صور مبان أعلى من مبانى رومة(٤٩) . وأحياء أقذر من أحيائها ؛ تفوح منها روائح مصانع الصباغة الكريهة ؛ ولكنها كانت تعزى نفسها باعتقادها أن العالم كله يبتاع منسوجاتها ذات الألوان المتعددة الجميلة ، وبخاصة حريرها الأرجوانى . والراجح أن صيدا قد كشفت طريقة صنع الزجاج بالنفخ ، وأنها تخصصت وقتئذ فى صناعة الزجاج والبرنز ، واشتهرت برنيس (بيروت) بمدارس الطب والبلاغة والقانون ، وأكبر الظن أن أپيان وباپنيان المشترعين العظيمين قد تخرجا فى جامعتها ثم انتقلا منها إلى رومة .

ولم يكن فى الإمبراطورية كلها ولاية تفوق سوريا فى صناعاتها ورخائها ؛ وكان يعمرها فى زمن تراچان عشرة ملايين من الأنفس وإن كان سكانها الآن لا يزيدون على ثلاثة ملايين ولا يكادون يجدون ما يكفيهم من أسباب العيش(٥٠) . وكان فى الولاية نحو خمسين مدينة تستمتع بالماء النقى ، والحمامات العامة ، والمجارى الممتدة تحت الأرض ، والأسواق النظيفة ، ومدارس التدريب الرياضى ، وساحات الألعاب ، والمحاضرات ، والموسيقى ، والمدارس ، والهياكل ، والباسلقات ، والأروقة المعمدة ، والأقواس ، والتماثيل العامة ، ومعارض الفن العمومية ، وهى

المظاهر التى كانت تمتاز بها المدن الهلنستية فى القرن الاول بعد الميلاد(٥١) وكانت أقدم هذه المدن كلها مدينة دمشق القائمة وراء جبال لبنان المواجهة لصيدا ، وكانت تحميها الصحراء المحيطة بها . وقد أحالتها إلى حديقة غناء روافد وفروع لذلك المجرى الذى سماه الأقدمون « نهر الذهب » اعترافاً منهم بفضله . وكانت تلتقى عندها كثير من طرق القوافل ، وتفرغ فى أسواقها غلات قارات ثلاث .

وإذا عاد المسافر فى هذه الأيام فعبر تلال لبنان الصغرى واتجه نحو الشمال فى طرق متربة أدهشه أن يجد فى قرية بعلبك الصغيرة بقايا هيكلين فخمين ومدخل عظيم ، كانت فى يوم من الأيام مما تفخر به هليوپوليس مدينة الشمس اليونانية — الرومانية — السورية . وأسكن أغسطس فى ذلك المكان جالية رومانية صغيرة ، ثم نمت المدينة وازدهرت وصارت مركز عبادة بعل إله الشمس وملتقى الطرق الذاهبة إلى دمشق ، وصيدا ، وبيروت . وأقام المهندسون والبناءون الرومان ، واليونان ، والسوريون فى مكان هيكل بعل الفينيقى القديم مزاراً فخماً لچوپتر الهليوبوليسى ، أقاموا كل جدار من جدرانه من حجر واحد ضخم قطعوه من محجر يبعد عن موضعه مسافة ميل . وكانت إحدى كتله الحجرية تبلغ اثنتين وستين قدماً فى الطول وأربع عشرة فى العرض ، وإحدى عشرة فى الارتفاع ، وفيها من المادة الحجرية ما يكفى لبناء بيت رحب . وكانت إحدى وخمسون درجة من الرخام يبلغ عرض الواحدة منها مائة وخمسين قدماً تؤدى إلى المدخل الكورنثى العظيم ، فإذا اجتاز الإنسان البهو الأمامى والبهو الذى يليه المعمدين وجد البناء الرئيسى للهيكل ، وقد بقى منه حتى الآن ثمانية وخمسون عموداً تعلو فى الجو اثنتين وستين قدماً . وبالقرب من هذا الهيكل الكبير بقايا هيكل أصغر منه ، يقال أحياناً إنه كان هيكل ڤينوس وأحياناً باخوس ، وأحياناً دمتر . وقد أبقى الزمان على تسعة عشر عموداً من عمده ، وعلى باب جميل دقيق النقش . وتتألق هذه العمد الفخمة المنعزلة فى شمس السماء الصافية ، وهى من أجمل ما بقى من

مخلفات العصور السالفة . وإن المرء حين يشاهدها ليحس ، أكثر مما يحس حين يشاهد أي أثر من آثار رومة ، بعظمة الإمبراطورية الرومانية ، وبما فيها من ثراء ، وشجاعة ، ومهارة ، وذوق جميل أمكنها بها أن تشيد في مدنها الكثيرة المتفرقة هياكل أعظم وأكثر فخامة مما عرفته العاصمة المزدحمة في أي عصر من عصورها ..

وتقع على منظر كهذا عين السائح الذى يتجه نحو الشرق ويعبر الصحراء من حمص ، إمسا Emessa القديمة ، إلى تدمر التى ترجم اليونان اسمها إلى پلميرا Palmyra أى المدينة ذات الألف نخلة . وقد كانت أرضها الخصبة المحيطة بعينين نضاختين ، وموقعها الحسن على الطريقين الممتدين من حمص ودمشق إلى نهر الفرات ، سببا فى ثرائها ، فلم تلبث أن أصبحت من أكبر مدائن الشرق ؛ وقد أمكنها بعدها عن غيرها من المحلات أن تحتفظ باستقلالها الفعلى رغم تبعيتها الاسمية للملوك السلوقيين أو للأباطرة الرومان . وكان على جانبى شارعها الأوسط الرئيسى أروقة ظليلة تحتوى على ٤٥٤ عموداً ، وفى مواضع تقاطعه الأربعة أقواس فخمة بقى منها واحد حتى الآن شاهدا على ما كانت عليه بقية هذه الأقواس من عظمة وجلال . وكان أجمل مبانى المدينة كلها وأعظمها هيكل الشمس الذى شيد فى عام ٣٠ م . للثالوث الأعظم بعل ، وبرهبول (الشمس) وأجلبول (القمر) . وكان حجمه اطراداً لتقاليد الآشوريين فى الضخامة ، وكان بهوه ، وهو أكبر الأبهاء فى الإمبراطورية الرومانية ، يحتوى على صف من العمد لا مثيل له فى بلد من بلادها ، طوله أربعة آلاف قدم ؛ وكان الكثير منها عمدا كورنثية مرتبة صفوفا فى كل منها أربعة . وكان فى داخل البهو والهيكل رسوم ملونة ومنحوتة يدل ما بقى منها على اقتراب تدمر من پارثيا فى الفن كقربهما فى المكان .

ويبدأ من تدمر طريق رئيسى يتجه نحو الشرق ويصل إلى نهر الفرات عند دورا — أوروپس Dua-Europus . وهنا اقتسم التجار (عام ١٠٠ م)

مكاسبهم مع الثالوث التدمرى بأن شيدوا له هيكلا كان مزيجا من الفن اليونانى والهندى ؛ وزين مصور شرقى جدرانه بمظلمات تدل أوضح دلالة على أن الفن البيزنطى والفن المسيحى الأول من أصل شرقى(٥٢) . وكان على النهر الأعظم شمال هذه المدينة مدينتان أخريان ذواتا شأن عند ملتقى طريقين بريين كبيرين وهما مدينتا ثپساكس Thapsacus وزجما Zeugma . وإذا اتجه المسافر من ثپساكس نحو الغرب مر بمدينتى بروئيا Beroea (حلب) ، وأپاميا Apamea ووصل إلى البحر الأبيض المتوسط عند لأوديسيا Laodicea — التى لا تزال تحتفظ باسمها القديم اللاذقية مع تحريف قليل فيه ، ولا تزال أيضاً ثغرا ناشط الحركة . وبين هذه البلدة وأپاميا يتجه نهر العاصى نحو الشمال وتمتد على شاطئيه ضياع غنية حتى يصل إلى أنطاكية عاصمة سوريا فى ذلك الوقت . وكان النهر تعاونه شبكة عظيمة من الطرق البرية يحمل بضائع الشرق إلى أنطاكية ، بينما كانت سلوپا سپيريا Selluci Spieria ثغر البلاد الواقع على البحر الأبيض على بعد أربعة عشر ميلا من أنطاكية نحو مصب النهر تأتى إليها بحاصلات الغرب . وكان الجزء الأكبر من المدينة يقوم على سفح الجبل ويشرف على نهر العاصى الذى يجرى من تحته . وكانت المدينة ذات موقع جميل استطاعت انطاكية بفضله أن تنافس رودس فى أن تكون أجمل مدائن الشرق الهلنستى . وكانت شوارعها تضاء بالليل فتكسبها بهجة وجمالا ، وتؤمن سكانها على أنفسهم وأموالهم ، وكان شارعها الرئيسى البالغ طوله أربعة أميال ونصف ميل مرصوفاً بالحجر الأعبل ، ويقوم على جانبه صفان من العمد المسقفة ، فكان فى وسع الإنسان أن يسير راجلا من أحد طرفى المدينة إلى طرفها الآخر وهو آمن من المطر وحر الشمس . وكان الماء النقى يصل بمقادير موفورة إلى كل بيت من بيوتها . وقد اشتهر سكانها البالغ عددهم ٦٠٠٫٠٠٠ ، والذين كانوا خليطا من اليونان ، والسوريين ، واليهود بإفراطهم فى اللهو والمرح ، يعبون اللذات عبا ، ويسخرون من الرومان

المتباهين الذين جاءوا ليحكموهم ، والذين يقضون أوقاتهم بين حلبة الألعاب ، والمدرج ، والمواخير ، والحمامات ، ويستمتعون بكل ما يتيحه لهم دافنى Daphne بستانهم الشهير القائم فى ضاحية المدينة . وكان للأهلين أعياد كثيرة ، تستمتع أفروديتى بنصيب فيها كلها . وفى عيد بروماليا Brumalia الذى كان يدوم معظم شهر ديسمبر ، كانت المدينة كلها ، كما يقول كاتب معاصر ، تبدو كأنها حانة واحدة ، وكانت الشوارع تعج طول الليل بالغناء والقصف والمرح(٥٣) . وكان فيها مدارس لتعليم البلاغة ، والفلسفة ، والطب ، ولكنها لم تكن مركزاً علمياً ، ذلك أن أهلها كانوا يقضون يومهم كله فى العمل ، فإذا احتاجوا للدين لجأوا إلى المنجمين ، والسحرة ، وصناع المعجزات ، والمشعوذين .

والصورة التى تطالعنا لسوريا تحت حكم الرومان هى صورة البلد الرخى رخاء أدوم من رخاء أية ولاية أخرى من ولايات الدولة الرومانية . وكان معظم أهلها من الأحرار إلا من كان يقوم منهم بالخدمة فى البيوت . وكانت الطبقات العليا مصطبغة بالصبغة اليونانية ، أما الطبقات الدنيا فقد احتفظت بطابعها الشرقى . وكان الفلاسفة اليونان يختلطون فى المدينة الواحدة بعاهرات الهياكل والكهنة الفنيين ، وقد ظل الأطفال حتى أيام هدريان يضحى بهم قرباناً للآلهة(٥٤) . وكانت التماثيل المنحوتة والصور الملونة ذوات وجوه وأشكال نصف شرقية ، وعليها طابع العصور الوسطى . وكانت اللغة اليونانية اللغة السائدة فى دور الحكومة وفى الأدب ، ولكن لغات البلاد — وأهمها الآرامية — ظلت لغة التخاطب بين الأهلين . وكان العلماء فيها كثيرين ، وقد طبقت شهرتهم العالم كله فترة قصيرة من الزمان . فقد كان منهم نقولوس الدمشقى الناصح الأمين لأنطونيوس وكليوبطرة ، وهيرود ، والذى أخذ على عاتقه ذلك الواجب الثقيل الممل واجب كتابة تاريخ عام ، وهو واجب يشفق منه هرقول نفسه ، على حد قوله(٥٥) . وقد أشفق الدهر عليه فدفن كل مؤلفاته ، كما سيدفن مؤلفاتنا هذه على مهل .

الفصل السادس

آسية الصغرى

كان فى شمال سوريا مملكة كمجينى Commagene التى كانت فى أول الأمر منضمة للإمبراطورية الرومانية ثم أصبحت فيما بعد ولاية من ولاياتها ؛ وكانت عاصمتها سموساتا Samosata ، التى قضى فيها لوشيان أيام طفولته ، آهلة بالسكان . وكان فى الناحية الأخرى من نهر الفرات مملكة أسرهوني Osrhoene الصغيرة ؛ وقد حصنت رومة عاصمتها إذسا Edessa (أورفه) لتكون قاعدة لها ضد پارثيا ، وسنسمع الكثير عنها فى عصر المسيحية . وإذا اتجه المسافر غربا من سوريا انتقل إلى قليقية (كما ينتقل الآن إلى تركيا) عند الكسندريا إسى Alexandria Issi (الإسكندرونة) . وكانت هـذه الولاية ، وهى ولاية شيشرون ، ذات حضارة راقية تمتد على الساحل الجنوبى لآسية الصغرى ، ولكنها فى جزئها الواقع على جبال طوروس لم تكن قد خرجت بعـد من طور الهمجية .. ولم تكن حاضرتها طرسوس « بالمدينة الحقيرة » كما يقول ابنها القديس بولس ، بل كانت تشتهر بمدارسها وفلاسفتها .

وكان أمام قليقية فى البحر الأبيض المتوسط جزيرة قبرص تعمل كما كانت تعمل من أقدم الأزمنة فى استخراج النحاس ، وقطع أشجار السرو ، وبناء السفن ، وتتلقى صابرة ضربات الفاتحين . وكانت مناجمها الغنية ملكا لرومة تستغلها على أيدى الأرقاء . ويصف جالينوس فى أيامه منجماً انهار على من فيه وقضى على حياة مئات من العمال - وتلك حادثة تتكرر آناً بعد آن فى الأبسس الجيولوجية لقوى الإنسان وأسباب راحته .

وكان إلى شمال قليقية ولاية كپدوكيا الجبلية القاحلة ، الغنية بمعادنها النفيسة ، والتى تنبت القمح وتربى الماشية والعبيد لتصديرها إلى خارجها . وكان إلى غربها ولاية ليكاؤنيا Lycaonia التى يبدأ تاريخها بزيارات القديس بولس لدربى Derbe ، وليسترا Lystra وأيكونيوم iconium . وفى شمال هذا الإقليم نجد جلاتيا Galatia التى استوطنها الغاليون وأطلقوا عليها هذا الاسم فى القرن الثالث قبل الميلاد . وكان أهم ما أخرجته هو حجر پسينس Pessinus الأسود الذى أرسل إلى رومة ليكون رمزاً لسيبيل ؛ وكانت أهم مدنها فى ذلك الوقت مدينة أنقورة Ancyra ، (أنقره) التى كانت عاصمة لحثيين منذ ثلاثة آلاف وخمسمائة عام ، والتى صدت عاصمة تركيا فى هذه الأيام . وكان فى ولاية پيسيديا Pisidia الواقعة غرب قليقية خمس مدن جميلة مثل زنثوس التى كانت وقتئذ قد بدأت تستفيق من الانتحارات الكثيرة قبل بروتس ، وأسپندس Aspendus التى احتفظت بملهاها إلى درجة يسهل على الإنسان معها أن يتصوره وقد امتلأ مرة أخرى ليستمع إلى منندر أو يوريديز .

وكان فى شمال پيسيديا وغربها ولاية « آسية » بأقسامها الأربعة : فريجيا ، وكاريا ، وليديا ، وميزيا Mysia . وكانت حضارة أيونيا لا تزال مزدهرة فى هذه الولاية بعد أن بدأت فيها منذ ألف عام ؛ وقد استطاع فيلوستراتس أن يحصى فيها خمسمائة بلدة يبلغ مجموع سكانها أكثر مما تكفيهم موارد الإقليم كلها فى هذه الأيام . وكان ريفها خصباً ، وكانت الصناعات قد ازدادت دقة جيلا بعد جيل ، وكانت الثغور قد أفادت من قيام الأسواق الغنية فى إيطاليا ، وأفريقية ، وأسياتيا ، وغالة . لقد كانت فريجيا بلاداً جبليـــة ، ولكنها كانت تزهو بمدنها الكبيرة كأپميا سيليتى Apamea Celaenae — التى يقول اســـترابون إنها لا يفوقها إلا إفسيس فى « آسية » — ولؤديسيا التى أسعدها الحظ بفلاسفتها وأثريائها المحسنين الخيرين : وكانت نيدس Cnidus لا تزال على قدر من الغنى يمكنها من

أن تحالف رومة ، أما هلكرنسس فكانت قد انحدرت فلم تنجب أرقى من ديونيشيس — وهى التى أنجبت هيرودوت — وكان ديونيشيس هذا ناقداً أدبياً بارعاً ولكنه كان مؤرخاً تعوزه القدرة على النقد والتمحيص . وكانت ميلتس قد جاوزت عهد شبابها ، وإن كانت لا تزال ثغراً نشيطاً ؛ وكان وحى أبلو فى ديديما Didyma القريبة منها لا يزال يجيب عن الأسئلة إجابات ملغزة ، وكان القصاصون فى هذا الإقليم ينسجون « القصص الميليتية » الغزلية ذات الخيال الوثاب التى تطورت بعد قليل من الوقت فكانت هى الروايات اليونانية القصصية الطويلة . وكانت پرينى Priene بلدة صغرى ، ولكن أهلها أخذوا يتبارون فى تجميلها بالمبانى الفخمة . وفى هذه المدينة انتخبت فى القرن الأول الميلادى امرأة تسمى فيلى Phile لتشغل أسمى المناصب فى البلدة وذلك لأن نفوذ رومة وثراءها قد أخذا يرفعان من منزلة المرأة فى الأراضى الهلينية . وكانت مجنيزيا القائمة على ضفة المينذر تضم هيكلا يعده الكثيرون أقرب هياكل آسية إلى الكمال — وكان مخصصاً لعبادة أرتميس (١٢٩ ق . م) . وقد خططه هرموجنيز Hermogenes أعظم مهندسى ذلك العنصر . وكان العامة من أهل ميكالى لا يزالون يجتمعون فى كل سنة ليكون منهم اتحاد عام ومجلس دينى لأيونيا .

واشتهرت كوس إحدى الجزائر القريبة من ساحل كاريا بنسج الحرير وبمدرستها الطبية الغنية بتقاليد أبقراط ؛ وكانت رودس (الوردة) حتى فى إبان ضعفها أجمل مدائن العالم اليونانى . ولما أن أراد أغسطس بعد الحرب الأهلية أن يخفف من بؤس المدن الشرقية بالسماح لها بإلغاء الديون كلها ، أبت رودس أن تفيد من هذا التيسير ؛ وأدت كل ما عليها من التزامات بصدق وأمانة . وكان من أثر هذا أن استعادت بعد زمن قليل مكانتها بوصفها المصرف المالى لتجارة بحر إيجة ، وعادت كما كانت من قبل الميناء الذى ترسو فيه البواخر المسافرة بين آسية ومصر . وقد اشتهرت المدينة بتمثالها الضخم المحطم ، ومبانيها الجميلة ،

وتماثيلها الرائعة ، وشوارعها المنظمة النظيفة ، وحكومتها الأرستقراطية القديرة ، ومدارس الفلسفة والخطابة الذائعة الصيت . وفى هذه المدارس علم أبلونيوس مولو قيصر ، وشيشرون تلك الأساليب الفنية التى أثرا بها فى كل ما كتب بعدهما من نثر لاتينى .

وكان أشهر علماء رودس فى ذلك العصر هو پوسيدونيوس صاحب أكبر عقل منشئ مبدع فى التاريخ القديم كله . وكان مولده فى إپاميا Apamea من أعمال سوريا عام ١٣٥ ق . م ، وكان أول ما اشتهر به سرعة عدوه فى المسافات البعيدة ، وبعد أن درس على پنيتيوس Panetius فى أثينة اتخذ رودس وطناً له ، وعمل فيها حاكما وسفيراً ، وطاف بعدة ولايات رومانية ، ثم عاد إلى رودس ، واجتذب إلى محاضراته فى الفلسفة الرواقية عظماء الرجال أمثال پمپي وشيشرون . وذهب فى الثالثة والثمانين من عمره ليعيش فى رومة ومات فيها فى السنة التالية . ومن مؤلفاته كتاب التاريخ العام المفقود الذى يقص تاريخ رومة وممتلكاتها من عام ١٤٤ إلى عام ٨٢ ق . م ؛ وكان العلماء القدامى يضعونه فى منزلة كتاب پوليبيوس . وكان وصفه لرحلاته فى غالة ، ورسالته عن المحيط من المصادر التى استمد منها استرابون كتاباته . وكان تقديره بعد الشمس عن الأرض — ٥٢٫٠٠٠٫٠٠٠ — أقرب إلى تقدير هذه الأيام من تقدير أى عالم قبله . وقد سافر إلى قادس Cadis ليدرس المد والجزر ، وفسر هذه الظاهرة بأنها من فعل الشمس والقمر مجتمعين . وقدر عرض المحيط الأطلنطي بأقل من عرضه الحقيقى ، وتنبأ بأن فى مقدور المسافر من أسپانيا أن يصل إلى الهند بعد أن يقطع ثمانية آلاف ميل . وكان رغم إلمامه بالعلوم الطبيعية يؤمن بكثير من الأفكار الروحية السائدة فى عصره — فكان يعتقد بالشياطين وبالقدرة على معرفة الغيب ، وبالتنجيم ، وقراءة الأفكار ، وبقدرة الروح على أن ترى حتى تتحد اتحاداً

صوفيا بالله ؛ وعرف الله بأنه القوة الحيوية للعالم . وقد عده شيشرون أعظم الفلاسفة الرواقيين وكان فى هذا مبالغاً فى كرمه ، وفى وسعنا نحن أن نعده من رواد الأفلاطونية الجديدة ، وأن نرى فيه قنطرة انتقال من زينون إلى أفلوطينس .

وإذا سار المسافر محاذيا ساحل آسية وميما شطر الشمال من كاريا دخل ليديا وأقبل على إفسوس أعظم مدائنها . وقد ازدهرت فى أيام الرومان كما لم تزدهر من قبل . ومع أن برجموم كانت العاصمة الرسمية لولاية « آسية » الرومانية فإن إفسوس أضحت مقر الحاكم الرومانى والموظفين التابعين له ؛ هذا إلى أنها كانت أهم ثغور الولاية ، ومكان اجتماع جمعيتها الوطنية . وكان سكانها خليطا من أجناس مختلفة ، بلغ عـــددهم ٢٢٥ر٠٠٠ ، ويختلفون من السوفسطائيين الخيرين المحبين للإنسانية إلى الغوغاء الصخابين المخرفين . وكانت شوارع المدينة حسنة الرصف والإضاءة ، وكانت لها بواك مظللة تمتد أميالا عدة . وكان فيها كثير من المبانى العامة التى توجد فى غيرها من المدن ، وقد كشف بعضها من تاريخ قريب لا يبعد عن عام ١٨٩٤ : ومن هذه المبانى « متحف » أو مركز علمى ، ومدرسة طب ، ودار كتب ذات واجهة عجيبة مسرفة فى النقش والزينة ، وملهى يتسع لستة وخمسين ألفاً من النظارة . وهنا أثار دمتريوس صانع التماثيل العامة على القديس بولس بعد هذا العهد . وكان مركز المدينة وأهم مصرف مالى فيها هو هيكل أرتميس ، وكان يحيط به ١٢٨ عموداً كل واحد منها مهدى من أحد الملوك . وكان يقوم على خدمة كهنته الخصيان قسيسات عذارى وحشد من الأرقاء ، وكانت طقوسهم مزيجا من الطقوس الشرقية واليونانية : وكان للتمثال البربرى الذى يمثل هذه الإلهة صفان من الأثداء الكثيرة العدد ترمز إلى الخصوبة . وكان الاحتفال بعيد أرتميس يجعل أيام ما يو كلها أيام بهجة ، ومرح ، وحفلات ، وألعاب .

وكان جو أزمير أطيب من جو غيرها من البلدان رغم كثرة من كان فيها

من صيادى السمك . وقد وصفها أپولونيوس التيانائى Apollonius of Tyana الذى كان جواب آفاق بأنها « أجمل مدينة تحت الشمس »(٥٩). وكانت تزدهى على غيرها من المدن بشوارعها الطويلة المستقيمة ، وأعمدتها ذات الطبقتين من القرميد ، ومكتبتها ، وجامعتها . وقد وصفها رجل من أشهر أبنائها ، وهو إيليوس أرستيديز Aelius Aristides (١١٧ — ١٨٧ م) وصفا يكشف عما كانت عليه المدن الرومانية الهلنستية من روعة وبهاء ، فقال :

سر فيها من الشرق إلى الغرب تمر بهيكل فى إثر هيكل ، ومن تل فى إثر تل ، مخترقاً شارعا أجمل من اسمه (الطريق الذهبى) . ثم قف فوق حصنها تر البحر يمتد تحتك ، والضواحى تنتشر حولك . والمدينة إذا نظرت إليها ثلاث نظرات ملأت قلبك سروراً وغبطة . . . وكل شىء فيها من طرفها الداخلى إلى شاطئ البحر كتلة براقة من ساحات للألعاب ، وأسواق ، وملاه . . . وحمامات بلغت من الكثرة حداً لا يسهل عليك معه أن تعرف فى أيها تستحم ، وفوارات وطرقات عامة ، ومياه جارية فى كل بيت من بيوتها . وإن ما فيها من مناظر جميلة ، ومباريات ، ومعارض ليجل عن الوصف ؛ أما الصناعات اليدوية فحدّث عن كثرتها ولا حرج . وهذه المدينة هى أنسب المدائن كلها لمن يريدون أن يعيشوا فى هدوء وطمأنينة ليكونوا فلاسفة لا يعرفون الغش والخداع(٦٠) .

وكان إيليوس واحداً من كثيرين من البلغاء والسوفسطائيين الذين اجتذبت شهرتهم الطلاب إلى أزمير من جميع بلاد هلاس ؛ وكان معلمه پوليمو Polemo رجلا بلغ من العظمة — كما يقول فيلوستراتس — « درجة جعلته يتحدث والمدائن أقل منه ، والأباطرة لا يعلون عليه ، والآلهة أنداد له(٦١) . وكان إذا حاضر فى أثينة استمع إليه هرودس أتكس Herodes Atticus أعظم منافسيه فى البلاغة ، وكان من تلاميذه المعجبين به . وأرسل إليه هرودس ١٥٠٫٠٠٠ درخمة (٩٠٫٠٠٠ ريال أمريكى) نظير استمتاعه بميزة الاستماع إلى محاضراته ؛

ولما لم يشكر له پوليمو عمله هذا ، قال له أحد الأصدقاء إن الحاضر قد استقل المبلغ ، فبعث إليه هرودس مائة ألف أخرى ، قبلها پوليمو فى هدوء على أنها حق له . وقد استخدم پوليمو ثروته فى تزيين المدينة التى اتخذها وطناً له ؛ واشترك فى حكمها ، ووفق بين أحزابها ، وكان سفيراً لها . وتقول الرواية المأثورة إنه أيقن أنه لا يطيق الصبر على داء المفاصل الذى كان مصاباً به ، فدفن نفسه فى قبر أسلافه فى لأوديسيا ، وأمات نفسه جوعاً فى سن السادسة والخمسين(٦٢) .

وكانت سرديس ، عاصمة كروسس القديمة ، لا تزال « مدينة عظيمة » فى عهد استرابون . وقد تأثر شيشرون بعظمة متلينى وجمالها ووصفها لنجس Longus فى القرن الثالث وصفاً يذكرنا بجمال مدينة البندقية(٦٣) ؛ وكانت برجموم يتلألأ فيها المذبح العظيم ، والمبانى الفخمة التى شادها ملوكها من أسرة أتالس Attalus ، وأنفقوا عليها من الخزائن التى امتلأت بالمال من كدح العبيد فى غابات الدولة ، وحقولها ، ومناجمها ، ومصانعها : وقد استبق أتالس الثالث التوسع الرومانى والانقلاب الاجتماعى بأن أوصى بمملكته إلى رومة فى عام ١٣٣ ق . م ؛ غير أن أرستنكس ابن الملك يومنيز الثانى من إحدى الحظيات نقض الوصية وقال إن أتالس أرغم عليها ؛ ثم حرض العبيد والأحرار الفقراء على الثورة ، وهزم جيشاً رومانيا (١٣٢) ، واستولى على عدد كبير من المدن ، ووضع قواعد دولة اشتراكية بمعونة بلوسيوس Blossius معلم ابنى جراكس . وانضم إلى رومة ملكا بيثينيا وبنتس المجاورتين لبرجموم ، كما انضم إليها طبقات رجال الأعمال فى المدن المحتلة فأخمدت رومة بمعونتهم هذه الثورة ومات أرستنكس فى أحد السجون الرومانية . وعاقت الثورة والحروب المثرداتية حياة برجموم الثقافية مدى نصف قرن من الزمان ، ونهب أنطونيوس مكتبتها الشهيرة ليعوض بها الإسكندرية عن الكتب التى احترقت منها أثناء إقامة قيصر فيها . وما من شك فى أن برجموم قد انتعشت قبيل عهد فسپازيان ، وشاهد ذلك أن پلنى الأكبر حكم بأنها أكثر

مدائن آسية ازدهاراً . وقامت فيها أيام الأنطونينيين حركة بناء جديدة ، ونشأت فى الإسكلپيوم مدرسة طبية خرج منها جالينوس ليداوى أمراض العالم .

واستحالت اسكندرية ترواس Alexandria Troas على يد أغسطس مستعمرة رومانية تخليدا لأصل رومة الطروادى المزعوم ، وقد استندت رومة إلى هذا الأصل المزعوم فى مطالبتها بجميع البلاد التى وصفناها فى هذا الفصل . وقد أعيد بناء طروادة القديمة على تل قريب من هـــذه البلدة (حصار لك) ، وسميت باسم إليوم Illium الجديدة ، وأضحت بعد بنائها مقصداً للسياح ، وكان الأدلاء يرشدونهم إلى كل بقعة حدثت فيها إحدى الحوادث الواردة فى الإلياذة ، ويطلعونهم على الكهف الذى حاكم فيه پاريس هيرا ، وأفروديتى ، وأثينة . وقد بنى سزكس Cyzicus سفنا على البروپيتس وأرسل منها إلى جميع البحار المعروفة أسطولا تجارياً لم يكن ينافسه إلا أسطول رودس . وهنا شاد هدريان هيكلا لپرسفنى ، كان من أعظم الهياكل التى تفتخر بها آسية . ويقول ديوكاسيوس إن قطر كل عمود من أعمدته كان ست أقدام وارتفاعه خمساً وسبعين قدماً ، ومع هذا فقد كان العمود منحوتاً من كتلة واحدة من الحجر(٦٤) . وكان هذا الهيكل قائماً على ربوة ، ولهذا بلغ من الارتفاع حداً رأى معه إيليوس أن لا ضرورة لإقامة منارة لهداية السفن .

وقامت فى أيام السلم الرومانية مائة مدينة مزدهرة على الطريق الممتد من البحر الأحمر إلى البحر الأسود .

الفصل السابع

مثردات العظيم

كانت بيثينيا وپنتس تمتدان على السواحل الشمالية لآسية الصغرى ؛ وكانت أرضهما جبلية فى الداخل ، لكنها كانت غنية بالخشب والمعادن . وقد طغى على سكانها الخثيين الأقدمين خليط من التراقيين ، واليونان ، والإيرانيين وحكمت بيثينا أسرة ملكية يونانية — تراقية ، وشادت لها عاصمة فى نيقوميديا ، ومدينتين كبيرتين فى بروصه Prusa ونيقية . وأقام شريف إيرانى سمى مثردات دليلا على التقى والورع مملكة له حوالى عام ٣٠٢ ق . م شملت كپدوكيا وپنتس ، وأنشأ أسرة من الملوك البواسل نشروا الثقافة اليونانية فى البلاد ، واتخذوا كومانا پنتيكا Comana Pontica وسينوب عاصمتين لهم . وانتشر مُلكهم حتى اصطدم بمصالح رومة الاقتصادية والسياسية ؛ فشبت على أثر ذلك نار الحروب المثردانية التى سميت بهذا الاسم المواثم لها كل المواءمة نسبة إلى الملك الجبار الذى جمع آسية الغربية وبلاد اليونان الرومانية ، ونشر فيها جميعاً لواء فتنة صماء لو أنها نجحت لبدلت تاريخ أوربا تبديلا .

وكان مثردات السادس قد ورث عرش پنتس وهو غلام فى الحادية عشرة من عمره ، وحاولت أمه هى والأوصياء عليه أن يقتلوه لتجلس هى على العرش مكانه ، لكنه قفز من قصره ، واختفى عن الأبصار ، وعاش أحد عشر عاماً فى الغابات يصطاد الوحوش ، ويتخذ من جلودها لباساً . وحدث فى عام ١١٥ ق.م انقلاب سياسى مفاجئ أدى إلى خلع أمه وإعادته إلى ملكه . وكانت تحيط

به المؤامرات التى هى من خصائص القصور الشرقية(*) ، فاحتاط لها بأن كان يتجرع قليلا من السم فى كل يوم ، حتى كانت له حصانة من معظم أنواع السم التى كانت فى متناول المقربين إليه . وقد كشف فى أثناء تجاربه هذه كثيراً من العقاقير المضادة للسم والشافية منه . ثم امتدت هوايته من هذا إلى الطب بوجه عام ، فجمع فيه معلومات بلغ من قيمتها أن أمر بمبى بترجمتها إلى اللغة اللاتينية . وكانت حياته البرية الصارمة قد أكسبته قوة فى الجسم وفى الإرادة ؛ وأن بلغ من الفخامة درجة رأى معها أن يرسل دروعه السابغة إلى دلفى ليشاهدها العابدون ؛ وكان فارساً ماهراً ، ومحارباً شجاعاً ، ويؤكد لنا عارفوه أنه كان فى مقدوره أن يعدو بسرعة يدرك به ظباء الفلاة ، وأنه يستطيع أن يسوق عربة يجرها ستة عشر جواداً ، ويقطع مائة وعشرين ميلا فى اليوم الواحد(٦٥) . وكان يفخر بقدرته على أن يأكل أكثر مما يأكل أى إنسان آخر ويشرب أكثر مما يشرب ، وكان له عدد كبير من النساء . ويقول المؤرخون الرومان إنه كان قاسى القلب ، غداراً ، وإنه قتل أمه ، وأخاه ، وثلاثة من أبنائه ، وثلاثاً من بناته(٦٦) ، ولكن رومة لم تنقل لنا ما عسى أن يقوله هو دفاعاً عن نفسه . ولقد كان مثقفاً بعض الثقافة ، فى مقدوره أن يتكلم اثنتين وعشرين لغة ، ولم يستخدم قط مترجماً بينه وبين من يتحدث إليه من الأجانب(٦٧) . وقد درس الآداب اليونانية ، وكان مولعاً بالموسيقى اليونانية ، وأغنى بالمال والنفائس الهياكل اليونانية ، وكان فى بلاطه عدد كبير من علماء اليونان ، وشعرائهم ، وفلاسفتهم . وقد جمع كثيراً من التحف الفنية ، وسبك نقوداً ذات أشكال جميلة ممتازة . ولكنه لم يتورع عن الشهوانيـــة والفظاظة التى كان يمتلئ بها جوه النصف

(*) مما يؤسف له أن المؤلف ينسى من ان إلى آن صفة المؤرخ النزيه فيغمز الشرق غمزات كان خليقاً به أن ينزه قلمه عنها . فلسنا نعلم أن الشرق قد اختصت قصور ملوكه بالدسائس ، وفى التاريخ كثير من الشواهد على أن هذه الدسائس لم تكن تقل فى قصور ملوك الغرب عنها فى الشرق . (المترجم)

الهمجي ، وصدق خرافات أهل زمانه . ولم يكن يحمي نفسه من رومة بما كان خليقاً أن يقوم به التائد أو السياسي العظيم من حركات صادرة عن نفاذ البصيرة وبعد النظر ، بل كان يحميها بالشجاعة الارتجالية التي يعمد إليها الحيوان إذا وقع في المحظور .

ومثل هذا الرجل لا يمكن أن يقنع بالمملكة الصغيرة التي خلفتها له أمه — ولهذا فتح أرمينية وبلاد القوقاز مستعيناً على ذلك بضباط وجنود مرتزقين من اليونان ، ثم عبر نهر قوبان ومضيق كرتش إلى بلاد القرم وأخضع لحكمه جميع المدن اليونانية القائمة على سواحل البحر الأسود الشرقية ، والشمالية ، والغربية . وإذا كان انهيار قوة اليونان العسكرية قد ترك هذه الجماعات وهي تكاد تكون عاجزة كل العجز عن حماية نفسها من البرابرة الذين يجاورونها من خلفها . فإنها قد استقبلت جيوش مثردانس اليونانية استقبال الحماة المنقذين . وكانت من المدن التي خضعت له سينوب ، وطربزون ، وبنتيكپيم Panticapeum (كرتش) ، وبيزنطية . ولكن سيطرة بيثينيا على الهلسينت (الدردنيل) تركت تجارة پنتس في البحر الأبيض المتوسط تحت رحمة الملوك المعادين لها . فلما مات نيقوميدس الثاني ملك بيثينيا (٩٤ ق .م) تنازع ولداه على العرش ، واستغاث الثاني وهو سقراط بملك پنتس . وانتهز مثردانس فرصة النزاع الحزبي في إيطاليا فغزا بيثينيا لكي يجلس سقراط على العرش . ولم تشأ رومة أن ترى البسفور في أيدي أعدائها فأمرت مثردانس وسقراط أن يخرجا من بيثينيا . وصدع مثردانس بالأمر أما سقراط فرفضه ، فلم يكن من حاكم آسية الروماني إلا أن خلعه وتوج نيقوميدس الثالث . وغزا الحاكم الروماني الجديد پنتس وشجعه على ذلك منيوس أكوليوس Manius Aquilius الحاكم الروماني ، وبدأت بذلك الحرب المثردانية الأولى (٨٨ — ٨٤ ق . م) .

وأحس مثردانس أن الفرصة الوحيدة التى تتيح له البقاء هى إثارة الشرق الهلينى على سادته الإيطاليين ، فأعلن أنه منقذ هلاس وسير جيوشه لتحرير المدن اليونانية فى آسية بالقوة إذا كان لا بد من استخدامها ؛ ولما أن قاومته طبقات رجال الأعمال فى المدن ولى وجهـــه شطر الأحزاب الدمقراطية ، وأخذ يمنيها بإصلاحات شبه اشتراكية . وفى هذه الأثناء كان أسطوله المكون من أربعمائة سفينة قد دمر القسم المرابط فى البحر الأسود من الأسطول الرومانى وأوقع جيشه المؤلف من ٢٩٠٫٠٠٠ رجل هزيمة منكرة بقوات نيقوميدس وأكوليوس . وأراد الملك الظافر أن يعبر عن احتقاره لشراهة الرومان وبخلهم[٦٨] فصب الذهب المصهور فى أفواه أكوليوس الأسير — ولم يكن قد مضى على انتصاره على أرقاء صقلية الثائرين إلا وقت قصير . ورأت المدن اليونانية فى آسية الصغرى أن الرومان أصبحوا عاجزين عن حمايتها ، ففتحت أبوابها لجيوش مثردانس ، وأعلنت ولاءها له وللقضية التى نصب نفسه للدفاع عنها ، وقامت فى يوم حدده لها ، وبناء على أمره ، بقتل كل من فيها من الإيطاليين رجالا كانوا أو نساء أو أطفالا وقد بلغ عددهم ثمانين ألفاً (٨٨ ق . م) ، وفى ذلك يقول أپيان :

« ومزق الإفسوسيون أجسام الفارين الذين احتموا فى هيكل أرتميس وأمسكوا بصورة المعبودة ، ثم جزوا رؤوسهم . ورمى أهل برجموم بالسهام الرومان الذين احتموا فى معبد اسكلپيوس Aesculpius . واقتفى أهـــل أدرميتيوم Adramyttium من أراد النجاة بالسباحة فى البحر وقتلوهم وأغرقوا أطفالهم . وطارد أهل كونس Caunus (فى كاريا) الإيطاليين الذين احتموا حول تمثال فستا ، وقتلوا الأطفال أمام أعين أمهاتهم ، ثم أتبعوهم بالأمهات ، ثم بالرجال . . . وقد اتضح من هذه الأعمال أن الذى دفعهم إلى ارتكاب هذه الفظائع لم يكن خوفهم من مثردانس فحسب بل كان أيضاً كرههم للرومان »[٦٩] .

وما من شك فى أن الطبقات الفقيرة التى قاست أكثر من غيرها مظالم

الحكم الرومانى كانت لها اليد الطولى فى هذه المذابح الجنونية ، وما من شك أيضاً فى أن طبقات الملاك التى ظلت زمناً طويلا تتمتع بحماية الرومان لها قد استولى عليها الرعب حين أبصرت هذا الانتقام الرهيب . وأراد مثرداتس أن يهدئ ثائرة الطبقات الغنية بإعفاء المدن اليونانية من الضرائب مدة خمس سنين ، وبمنحها الاستقلال الذاتى التام ، لكنه « أعلن » فى الوقت نفسه ، كما يقول أبيان « إلغاء الديون ، وحرر العبيد ، وصادر كثيراً من الضياع ، وأعاد توزيع الأراضى الزراعية على السكان » . ودبر زعماء العشائر مؤامرة لاغتياله ، فلما كشف سرها أمر بقتل ألف وستمائة من هؤلاء الزعماء . واستولت الطبقات الدنيا يساعدها الفلاسفة وأساتذة الجامعات(٧١) على زمام السلطة فى كثير من المدن اليونانية ، ومنها أثينة واسپارطة نفسهما ، وأعلنت الحرب على رومة وعلى الطبقات الغنية معاً ، وقتل يونان ديلوس فى نشوة الحرية عشرين ألف إبطالى فى يوم واحد . واستولى أسطول مثرداتس على جزائر سكلديز كما استولى جيشه على عوبية ، وتساليا ، ومقدونية ، وتراقية . وكان خروج « آسية » الغنية عن سيطرة الرومان سبباً فى وقف الخراج الذى كان يرسل منها إلى الخزانة الرومانية ، وفوائد الأموال التى كان يحصل عليها المستثمرون الرومان ، فانتابت إيطاليا أزمة مالية كانت ذات أثر فى الحركة الثورية التى قام بها سترنينس Saturninus وسنا Cinna . وانقسمت إيطاليا على نفسها لأن السمنيين واللوكانيين عرضوا على ملك پنتس أن يعقدوا معه حلفاً .

ورأى مجلس الشيوخ الرومانى الحرب والثورة تواجهانه فى كل مكان ، فباع ما تجمع فى الهياكل الرومانية من الذهب والفضة ليمول بها جيوش صلا . ولسنا نرى من واجبنا أن نعيد هنا كيف استولى صلا على أثينة ، وهزم جيوش الثوار ، وأنقذ الإمبراطورية لرومة ، وعقد مع مثرداتس صلحاً قوامه اللين انسحب الملك على أثره إلى عاصمة پنتس ، يجهز فى هدوء جيشاً وأسطولا جديدين.

وقرر مورينا Murena المبعوث الرومانى فى آسية أن يهاجمه قبل أن يشتد ساعده ؛ فلما أن هزم مورينا فى هذه الحرب المثرداتية الثانية (٨٣ — ٨١) لامه صلا على خرقه شروط المعاهدة وأعلن انتهاء الأعمال العدوانية . وبعد ثلاث سنين من ذلك الوقت أوصى نيقوميدس الثالث ببيثينيا إلى رومة ؛ وأدرك مثرداتس أن مملكته نفسها ستبتلعها رومة عن قريب إذا امتد سلطانها إلى حدود بفلجونيا وبنتس بعد أن سيطر على الهلسفور . وبذل فى الحرب المثرداتية الثالثة (٧٥ — ٦٣) آخر جهوده ، وحارب لوكلس وبمبى اثنى عشر عاماً ، وغدر به أحلافه وأعوانه ففر إلى بلاد القرم . وحاول الجندى الشيخ ، وكان وقتئذ فى التاسعة والستين من عمره ، أن يعد جيشاً يخترق به بلاد البلقان ، ويغزو إيطاليا من الشمال ، ولكن ابنه فرناسس شق عصا الطاعة عليه ، وأبى جيشه أن يساق إلى هذه المغامرة ؛ وحاول الملك بعد أن تخلى عنه الجيش أن ينتحر ، ولكن السم الذى تجرعه لم يكن له أثر فيه لما كان قد كسبه قبل من الحصانة ، وكانت يداه أضعف من أن تضغط على النصل الذى أراد أن يقتل به نفسه ، ثم أجهز عليه أصدقاؤه ومحاسيبه الذين أمرهم ولده أن يقتلوه بأن طعنوه بسيوفهم وحرابهم .

الفصل الثامن

النــــثر

مما يذكر بالحمد للحكم الرومانى أن مدن آسية الصغرى لم يمض عليها إلا قليل من الوقت حتى أفاقت من حمى هذه الحروب المتقطعة . وصارت نيقوميديا عاصمة ولاية بيثينيا — پنتس ، ثم أضحت عاصمة الإمبراطورية فى عهد دقلديانوس ؛ وخلد اسم نيقية فيما بعد أن انعقد فيها أخطر مجلس فى تاريخ الكنيسة المسيحية ، وأخذت المدينتان تتنافسان فى تشييد المبانى منافسة اضطر معها تراجان أن يرسل پلنى الأصغر ليحول بينهما وبين الإفلاس . وأهدت نيقوميديا إلى الأدب ابنها فلاڤيوس أريانس الذى سجل أحاديث إيكتتس ، كما سبق القول . وكان أريان هذا حاكما على كپدوكيا ست سنين ، وأركونا لأثينة سنة واحدة ، ولكنه رغم هذه المشاغل وجد متسعا من الوقت لكتابة عدة كتب فى التاريخ لم يبق منها إلا **زحف الإسكندر** المذيل **بالإنديكا** Indica . وقد كتبه بلغة يونانية واضحة سهلة لأنه اتخذ أكسنوفون مثلا له فى أساوبه ، كما اتخذه مثلا له فى حياته . ويقول هو عن كتابه مفتخراً به كما يفخر الأقدمون :

« لقد كنت منذ صباى أنزل هذا الكتاب منزلة الوطن والأسرة والمنصب العام ، ولهذا فإنى لا أرى نفسى غير خليق بأن أعد بين أعظم المؤلفين فى اللغة اليونانية »(٧٢) .

وكانت هناك مدن أخرى على شاطئ البحر الأسود ذات مياه عظيمة وعلماء ذائعى الصيت . كان منها ميرليا Myrlea التى يبلغ عدد سكانها ٢٫٣٢٠٫٠٠٠(٧٣) وأمسارتس Amsartis (أمسرا Amsara) التى وصفها بلنى بأنها « مدينة أنيقة جميلة » ، والتى اشتهرت بما كان فيها من أشجار البقس الجميلة ؛ وسينوب

التى كانت مركزاً غنيا لصيد السمك ومنفذاً لخشب الإقليم المجاور لها ومعادنه ، وأميسس Amisus (سمسون) وطربيزس (طربزون) وكان أهلها يكسبون عيشهم بالاتجار مع سكوذيا (جنوبى روسيا) المقابلة لها على شاطئ البحر ، وأماسيا Amasea التى وُلد وعاش فيها استرابون أعظم الجغرافيين الأقدمين .

وكان استرابون ينتمى إلى أسرة غنية تنحدر ، كما يؤكد هو ، من ملوك بنتس ؛ وكان مصاباً بحول غريب(*) لا يزال يسمى باسمه حتى الآن(٧٤) . وكان كثير الأسفار ، ويلوح أن أسفاره كانت فى بعثات دبلوماسية ، وكان ينتهز كل فرصة مستطاعة لجمع المعلومات الجغرافية والتاريخية . وكتب تاريخاً مكملا لتاريخ پوليبيوس ولكنه فقد ؛ ثم أخرج فى عام ٧ ق . م كتابه العظيم الجغرافية الذى حفظت لنا الأيام جميع أجزائه السبعة عشر تقريبا . وقد بدأه كما بدأ أريان كتابه بالتحدث عن مزاياه فقال :

إنى أستسمح قرائى ، وأطلب إليهم ألا يلومونى لطول بحثى بدل أن يلوموا أولئك الذين يحرصون أشد الحرص على معرفة كل ما هو شهير وقديم . . . ولا بد لى فى هذا الكتاب من أن أغفل الصغير من الأشياء ، وأن أخص بالعناية ما هو نبيل وعظيم . . . سواء كان نافعا ، أو ذائع الصيت ، أو باعثاً للبهجة والمتعة : وكما أننا إذا أردنا أن نحكم على قيمة تمثال ضخم لا نبحث كل جزء من أجزائه بدقة وعناية ، بل ننظر إلى الأثر العام الذى ينطبع فى أذهاننا منه . . . فكذلك يجب أن يحكم على كتابى هذا بالطريقة عينها . ذلك بأنه هو أيضاً عمل ضخم . . . خليق بأن يكون عمل فيلسوف »(٧٥) .

وهو يعترف فى صراحة بأنه يأخذ عن پوليبيوس ، وبسيدونيوس ، لكنه أقل صراحة فيما يأخذ عن أرتستنيز ، ويشتد عليهم جميعاً فى نقد أخطائهم ،

(*) Strabismus (المترجم)

ويقول إن أخطاءه هو يجب أن يلام عليها من أخذ عنهم(٧٦) . وهو يعترف بالمراجع التى أخذ عنها فى صراحة نادرة ويختار هذه المراجع فى العادة بدقة وحسن تمييز . ومن أقواله أن امتداد الإمبراطورية الرومانية قد وسع المعلومات الجغرافية ، وأنه يعتقد مع ذلك أن قارات بأكملها لا تزال مجهولة — وربما كانت هذه القارات فى المحيط الأطلنطى — وأن الأرض شبه كرة ، (ولكن اللفظ اليونانى قد يكون معناه « كريا ») وأن الإنسان إذا سافر من أسپانيا متجهاً نحو الغرب وصل بعد وقت ما إلى الهند . ويقول عن شواطئ البحار إنها فى تغير دائم بفعل التعرية أو الانفجار ؛ ويظن أن اضطراب باطن الأرض قد يشق برزخ السويس ويصل البحرين . وكان كتابه تلخيصا جريئا لما يعرفه الناس فى عصره عن الأرض ، وما من شك فى أنه من جلائل الأعمال فى العلم القديم .

وكان ديو كريسستوم — ديو ذو الفم الذهبى — (٤٠ — ١٢٠ م) أعظم شهرة فى عصره من استرابون . وكانت أسرته قد اشتهرت فى بروصة من زمن طويل ؛ فقد أفنى جده ثروته بما قدمه من الهبات لمدينته ، ثم جمع بعدئذ ثروة جديدة ؛ وحذا أبوه حذو جده ، وفعل ديو ما فعله الأب والجد(٧٧) . ولما كبر صار خطيباً وسوفسطائيا ، وسافر إلى رومة ، واعتنق مذهب الرواقية على يد موسنيوس روفس ، ونفاه دومتيان من إيطاليا وبيثينيا فى عام ٨٢ ؛ ولما حرم عليه أن ينتفع بملكه أو دخله ، أخذ يضرب فى الأرض ثلاثة عشر عاما وينتقل من قطر إلى قطر انتقال الفيلسوف المفلس ، يأبى أن يتقاضى أجراً على خطبه ، ويكسب قوته فى معظم الأحوال بعمل يديه . ولما جلس نيرفا على العرش بعد دومتيان ، تبدل نفى ديو تكريما ، فقد اصطفاه نيرفا وتراجان ووهبا مدينته هبات جمة إجابة لطلبه . ولما عاد إلى بروصه أنفق معظم ثروته فى تجميلها ، واتهمه فيلسوف آخر باختلاس الأموال العامة فحاكمه پلنى ، ويلوح أنه برئ من هذه التهمة . وخلف ديو وراءه ثمانين خطبة . ويبدو لنا فى هذه الأيام أن معظمها ألفاظ

جوفاء ليس فيها كثير من المعانى ؛ ويؤخذ عليها ما فيها من إطناب ، وتشبيهات خداعة ، وحيل بيانية ؛ فهى تمط نصف المعنى حتى تملأ به مائة صفحة ؛ فلا عجب بعدئذ إذا صاح أحد المستمعين بعد أن سئم هذا الطول : « إنك قد جعلت الشمس تغرب طول أسئلتك التى لا آخر لها »[٧٨] . ولكن الرجل كان فصيح اللسان ساحر البيان ، ولولا ذلك لصعب عليه أن يكون أشهر خطباء القرن الذى عاش فيه ، ولما كانت الحروب تقف لكى يستمع الناس إلى خطبه . وقد قال له تراجان فى يوم من الأيام قولا صادقا صريحا : « لست أفهم ما تقول ، ولكننى أحبك بقدر حبى لنفسى »[٧٩] . وكان البرابرة الضاربون على ضفتى البورسثنيز Borysthenes (الدنيبر) يستمعون إليه فى ابتهاج لا يقل عن ابتهاج اليونان وهم مجتمعون فى أولمپيا ، أو ابتهاج أهل الإسكندرية المعروفين بسرعة الانفعال . وحدث أن جيشاً أوشك أن يتمرد على نيرفا ، فهدأت سورته بعـــد أن استمع إلى خطبة ارتجلها الخطيب الطريد النصف العارى .

وأكبر الظن أن الذى أغرى الناس بالالتفاف حوله لم يكن أسلوبه اليونانى الأتكى الجميل بل كان هو جرأته فى التشهير ، ويكاد أن يكون هو الخطيب الوحيد فى العهود الوثنية القديمة الذى ندد بالدعارة ؛ وما أقل كتاب زمانه الذين هاجموا نظام الاسترقاق بمثل ما هاجمه هو من القوة والصراحة . (بيد أنه غضب بعض الغضب حين وجد أن عبيده فروا منه)[٨٠] . وكانت خطبته فى أهل الإسكندرية تنديداً عنيفاً بترفهم ، وتخريفهم ، ورذائلهم . وقد وقف يوما فى اليوم Ilium وألقى خطبة قال فيها إن طروادة لم توجد قط ، وإن « هومر كان أجرأ كاذب فى التاريخ » ؛ ثم وقف يوما آخر فى قلب رومة وأخذ يذكر فضائل الريف على المدن ، وصور فقر الريف تصويراً مؤثراً فى أسلوب قصصى واضح جذاب ، وأنذر مستمعيه أن الناس أخذوا يهملون الأرض ، وأن

(شكل — ٨) جندى رومانى وداشيان ، نقش بارز من عمود تراجان

الأساس الزراعى للحضارة قد انهار . ووقف مرة فى أولمبيا ليخطب فى جمع كبير من الذين يريدون الحياة الدنيا وزينتها ، وأخذ يصف أهل ذلك العصر من الأبيقوريين والملحدين . وكان مما قاله فى هذه الخطبة ، إن الصورة التى لدى الناس عن الإله قد تكون باطلة سخيفة ، ولكن الرجل العاقل يدرك أن العقل الساذج يحتاج إلى أفكار ساذجة ورموز تصويرية . والحق أن أحداً من الناس لا يستطيع أن يدرك صورة الكائن الأعلى ، وحتى التمثال الجليل الذى نحته فدياس نفسه لم يكن إلا فرضا مجسدا لا يليق بمقامه كما لا يليق به تصوره نجما أو شجرة . ونحن وإن كنا لا نعرف حقيقة الله ، ندرك بفطرتنا أنه موجود ، ونشعر أن الفلسفة بغير الدين شىء مظلم لا يرجى منه خير ؛ وأن الحرية الحقة الوحيدة هى الحكمة — أى أن يعرف الإنسان ما هو حق وما هو باطل ؛ وأن سبيل الحرية ليست هى السياسة أو الثورة ، بل أن سبيلها هى الفلسفة ، وليست الفلسفة الحقة هى الأفكار التى فى بطون الكتب ، بل هى اتباع طريق الشرف والفضيلة كما ينادى بها من داخلنا صوت هو كما يقول المتصوفة كلمة الله مستكنة فى قلب الإنسان(٨١) .

الفصل التاسع

التيار الشرقى الجارف

استعاد الدين فى القرن الثانى بعد الميلاد ما كان له من سلطان منذ أقدم العهود حين أقرت الفلسفة بعد أن غلبتها الأبدية والآمال البشرية بعجزها عن تحقيق تلك الأبدية وهذه الآمال ، فتخلت عما كان لها من سلطان . وكان الدين قبل أن يستعيد سلطانه هذا قد انزوى وأخذ يغذى جذوره ويترقب الفرص المواتية له . ولم يكن الناس أنفسهم قد فقدوا إيمانهم ، فقد قبلت كثرتهم الغالبة بجمل ما وصف به هومر الحياة الآخرة(٨٢) . وكانت تقرب القرابين فى خشوع قبل البدء برحلة من الرحلات ، وتضع أبلة فى فم الميت ليؤدى بها أجر عبوره نهر استيكس كما كانت تفعل فى الزمن القديم . وكانت سياسة الحكم الرومانيه ترحب بالعون الذى تلقاه من الكهنة الرسميين وتسعى للحصول على تأييد الشعب بإقامة الهياكل الفخمة للآلهة المحلية ، وظلت ثروة الكهنة تزداد زيادة مطردة فى جميع أنحاء فلسطين ، وسوريا ، وآسية الصغرى ؛ وظل السوريون يعبدون هداد Hadad وأترجاتس Atargatis ، وكان لهذين الإلهين مزار رهيب فى هيراپوليس ؛ وبقيت مدن سوريا ترحب ببعث الإله تموز وتنادى قائلة « لقد قام أدنيس (الرب) » ، وتحتفل فى آخر مناظر عيده بالرتفاعه إلى السماء(٨٣) . وكانت مواكب أخرى من هذا النوع تخلد آلام ديونيسس وموته وبعثه بطقوس يونانية . وانتشرت عبادة الإلهة ما Ma من كپدوكيا إلى أيونيا وإيطاليا ، وكان كهنتها (المسمون بالهيكليين fanatici أى المنتمين إلى الفانوم fanum أو الهيكل) يرقصون فى نشوة شديدة على أصوات الأبواق والطبول ، ويطعنون

أنفسهم بالمدى ، ويرشون دماءهم على الإلهة وعبادها المخلصين[٨٤] . ودأب الناس على خلق آلهة جدد ؛ فألّهوا قيصر ، والأباطرة ، وأنطنيوس ، وكثيراً من العظماء المحلين فى حياتهم وبعد مماتهم . وأخذت هذه الآلهة يمتزج بعضها ببعض بتأثير التجارة والحرب فتزداد عددها ويعظم شأنها فى كل مكان ، وتقام الصلوات بألف لغة لألف إله أملا فى النعيم والنجاة ؛ فلم تكن الوثنية والحالة هذه ديناً واحداً ، بل كانت جمة من العقائد المتشابكة ، المتناقضة ، المتنافسة ؛ وكثيراً ما كان يتدخل بعضها فى بعض وتختلط اختلاطاً متعمداً مختاراً .

وثبتت عبادة سيبيل فى ليديا وفريجيا ، وإيطاليا ، وأفريقية ، وغيرها من الأقاليم ، وظل كهنتها يُخصّون أنفسهم كما فعل حبيبها أتيس ؛ فإذا أقبل عيدها الربيعى صام عبادها ، وصلوا ، وحزنوا لموت أتيس ؛ وجرح كهنتها سواعدهم ، وشربوا دماءهم ، وحمل الإله الشاب إلى قبره باحتفال مهيب . فإذا كان اليوم الثانى ضجت الشوارع بأصوات الفرح الصادرة من الأهلين المحتفلين ببعث أتيس وعودة الحياة إلى الأرض من جديد ، وعلا صوت الكهنة ينادى أولئك العباد : « قوّوا قلوبكم أيها العباد المتصوفون ، لقد نجا الإله ، وستكون النجاة حظكم جميعاً »[٨٥] . وفى آخر يوم من أيام الاحتفال تحمل صورة الأم العظمى فى موكب للنصر ، ويخترق حاملوها صفوف الجماهير تحييها وتناديها فى رومة باسم «أمّنا»[٨٦](Nostra Domina) .

وكانت إيزيس الإلهة المصرية ، والأم الحزينة ، والمواسية المحبة ، وحاملة هبة الحياة الخالدة ، كانت هذه الإلهة تلقى من التكريم أكثر مما تلقاه سيبيل ؛ وكانت كل شعوب البحر الأبيض المتوسط تعرف كيف مات زوجها العظيم ، وكيف قام بعدئذ من بين الموتى ؛ وكان يحتفل بهذا البعث السعيد فى كل مدينة كبيرة قائمة على شواطئ هذا البحر التاريخى أروع احتفال وأفخمه ؛ وكان عباده المبتهجون ينادون : « لقد وجدنا أوزريس من جديد »[٨٧] . وكانوا يرمزون

إلى إيزيس بصور وتماثيل تحمل بين ذراعيها حورس ابنها الإلهى ، ويسمونها فى الأوراد والأدعية « ملكة السماء » ، و « نجم البحر » ، و « أم الإله »[٨٨]. وكانت هذه الطقوس أقرب العبادات الوثنية إلى المسيحية ، لما انطوت عليه قصة الإلهة من الحنو والرأفة ، وما اختصت به طقوسها من الرقة ، وما كان يسود هياكلها من جو مرح خال من العنف ، وما تشتمل عليه صلواتها المسائية من ألحان موسيقية مؤثرة ، وما يقوم به كهنتها الحليقو الرؤوس ذوو الثياب البيض من أعمال البر والخير[٨٩] ، وما كانت تتيحه هذه الإلهة لهؤلاء الكهنة من فرص لمواساة النساء وإدخال السرور على قلوبهن ، ولترحيبها الشامل بالناس جميعاً على اختلاف أممهم وطبقاتهم . وانتشر دين إيزيس من مصر إلى بلاد اليونان فى القرن الرابع قبل الميلاد ، ثم انتشر إلى صقلية فى القرن الثالث ، وإلى إيطاليا فى القرن الثانى ، ثم انتشر بعدئذ فى جميع أجزاء الإمبراطورية . وقد عثر على صورها المقدسة على ضفاف نهرى الدانوب والسين ، وكشف عن آثار معبد لها فى لندن[٩٠] .

وقصارى القول أن شعوب البحر الأبيض المتوسط لم تنقطع قط عن عبادة ما للنساء من قوة مقدسة خلاقة ، وما يتصفن به من رعاية للأمومة .

وكانت عبادة مثراس Mithras الإله الذكر تنتقل فى هذه الأثناء من فارس إلى أقصى تخوم الإمبراطورية الرومانية ؛ وكان مثراس هذا فى المراحل المتأخرة من الدين الزرادشتى ابن أهورا — مزدا إله النور ، وكان هو أيضاً إلهاً للنور ، والحق ، والطهر ، والشرف ؛ وكان يقال أحياناً إنه هو الشمس ، وإنه يقود الحرب العالمية ضد قوى الظلمة ، وإنه يشفع على الدوام لأتباعه عند أبيه ، ويحميهم ، ويشجعهم فى كفاحهم الدائم للشر والكذب ، والدنس ، وغيرها من أعمال أهرمان أمير الظلام . ولما أن نقل جنود بمبى هذا الدين من

كپدوكيا إلى أوربا صور فنان يونانى مثراس راكعا على ظهر ثور يطعنه بخنجر فى عنقه ، وأضحت هذه الصورة هى الرمز الرسمى لذلك الدين .

وكان اليوم السابع من كل أسبوع يوما مقدسا لإله الشمس ، وكان أتباعه يحتفلون فى الأيام الأخيرة من ديسمبر بمولد مثراس « الشمس التى لاتغلب » والإله الذى نال نصره السنوى على قوى الظلمة فى يوم الإنقلاب الشتائى ، والذى بدأ من ذلك اليوم يفيض على العالم ضياء يزداد يوما بعد يوم[٩١] . ويحدثنا ترتليان Tertullian عن كهنة مثراسيين على رأسهم « حبر أكبر » وعن عزاب وعذارى فى خدمة الإله » ؛ وكانت القرابين تقرب إليه على مذبحه فى كل يوم ، كما كان عباده يشتركون فى تناول طعام مقدس من الخبز والنبيذ ، وكانت الإشارة التى يختتم بها عيده هى دقات ناقوس[٩٢] . وكان يحتفظ على الدوام بنار متقدة أمام القبو الذى يمثل فيه الإله الشاب يطعن الثور بخنجره . وكان الدين المثراسى يحض على الخلق الكريم ، ويطلب إلى « جنوده » ألا ينقطعوا طول حياتهم عن محاربة الشر بجميع أنواعه . ويقول كهنته إن الناس كلهم سيحشرون لا محالة أمام مثراس ليحكم بينهم ، ثم تسلم الأرواح الدنسة إلى أهرمان لتعذب على يديه عذاباً أبدياً ، أما الأرواح الطاهرة فترتفع خلال طباق سبعة حتى تصل إلى بهاء السماء حيث يستقبلها أهورا — مزدا نفسه[٩٣] . وانتشرت هذه الأساطير التى تبعث فى نفس أصحابها الأمل والقوة فى القرنين الثانى والثالث من التاريخ الميلادى فى غربى آسية ، وانتقلت منه إلى أوربا (متخطية بلاد اليونان) ، وشادت معابدها متجهة نحو الشمال حتى وصلت إلى سورهدريان . وروّع الآباء المسيحيين ما وجدوه من أوجه الشبه بين دينهم وبين المثراسية ، وقالوا إن الثانية قد سرقت هذه العبادات عن المسيحية ، أو أنها فى المثراسية حيل مضللة احتال بها عليهم الشيطان (صورة من أهرمان) . وليس من

السهل أن نعرف أى الدينين أخذ عن الآخر ، ولعل الاثنين قد تسربت إليهما أفكار كانت وقتئذ منتشرة فى جو بلاد الشرق .

وكانت فى كلا الدينين العظيمين اللذين يسودان إقليم البحر الأبيض المتوسط « طقوس خفية » تتخذ عادة صورة احتفالات تطهير ، وتضحية ، وتثبيت ، ووحى ، تدور كلها حول موت الإله وبعثه . وكان الأعضاء الجدد يدخلون فى دين سيبيل بوضعهم عراة فى حفرة يذبح فوقها ثور ، فيسقط دم الحيوان الذبيح على الطالب الجديد ويطهره من خطاياه ويهبه حياة روحية جديدة خالدة إلى أبد الدهر . وكانت أعضاء التذكير فى الثور ، وهى التى تمثل الخصوبة المقدسة ، توضع فى إناء خاص ، وتهدى إلى الإلهة[٩٤] . وكان فى المثراسية طقس شبيه بهذا يعرفه العالم اليونانى والرومانى القديم باسم الثور بليوم taurobolium أو رمى الثور ويصف أپوليوس فى عبارات جزلة رائعة المراحل التى يمر خلالها خادم إيزيس — فترة الصوم المبدئية الطويلة ، والورع والتقشف ، والتطهير بالانغماس فى الماء المقدس ، ثم تظهر له فى آخر الأمر الرؤيى الصوفية للألهة لتهبه النعيم الأبدى . ويلتزم الطالب فى إلوسس أن يعترف بخطاياه (وقد كان هذا مما أخاف نيرون وأفقده شجاعته) ، وأن يصوم بعض الوقت عن أنواع خاصة من الأطعمة ، ويستحم فى الخليج ليتطهر من الدنس الجسمى والروحى ، ثم يقرب القربان ، وهو فى العادة خنزير . وفى عيد دمتر كان الطلاب المبتدئون يندبون معها اختطاف ابنتها إلى الجحيم ، ويقتصرون فى أثناء حزنهم هذا على تناول الكعك المقدس ، وخليط رمزى من الدقيق والماء والنعناع . وفى الليلة الثالثة تعرض مسرحية دينية تمثل بعث پرسفونى ، ويعد الكاهن الذى يقوم بالخدمة الدينية كل من تطهرت روحه بأن يبعث كپرسفونى بعثاً جديداً[٩٥] . وقد صورت الطائفة الأرفية ، متأثرة بالآراء الهندوكية أو الفيثاغورية ، موضوع هذه الطقوس فى جميع الأراضى اليونانية ، فقالت إن الروح تحبس فى طائفة متسلسلة من الأجساد المذنبة ، وإن

فى مقدورها أن تنطلق من هذا التجسد الثانى المشين بأن تسمو حتى تتحد اتحاداً هياميا بديونيشس . وكان الإخوان الأرفيون فى اجتماعهم يشربون دم ثور يضحون به للمنقذ الميت الذى يكفر عن خطاياهم ويوحدون بينه وبين هذا المنقذ . وكان الاشتراك الجماعى فى تناول الطعام والشراب المقدسين من المظاهر الكثيرة الحدوث فى أديان البحر الأبيض المتوسط ، وكثيراً ما كان أهل هذه الأديان يعتقدون أن هذا الطعام ستحل فيه بهذا التقديس قوى الإله ، ثم تنتقل منه بطريقة سحرية خفية إلى المشتركين فى تناوله(٩٦)

وكانت الشيع الدينية كلها تؤمن بالسحر ، فقد نشر المجوس فنهم هذا فى أنحاء الشرق وسموا الشعوذة القديمة باسم جديد ؛ وكان عالم البحر الابيض المتوسط غنيا بمن فيه من السحرة ، وصانعى المعجزات ، والمتنبئين ، والمنجمين ، والزهاد القديسين ، ومفسرى الأحلام العلميين . وكانت كل حادثة غير عادية تتخذ نذيراً إلهيا بما سيقع من الحوادث فى المستقبل ، وأصبح لفظ أسكسيز Askesis ، الذى كان معناه عند اليونان تدريب الجسم تدريبا رياضيا ، يقصد به وقتئذ إخضاع الجسم لسلطان الروح ؛ فكان الناس يضربون أنفسهم بالسياط ، ويبترون أعضاءهم ، ويجيعون أنفسهم ، أويقيدون أجسامهم بالسلاسل فى مكان واحد ؛ ومنهم من كانوا يموتون نتيجة لهذا التعذيب أو الحرمان(٩٧) الذاتى . ولجأ جماعة من اليهود وغير اليهود رجالا ونساء إلى الصحراء المصرية القريبة من بحيرة مريوط . يعيشون فيها منفردين فى صوامع وبيع ، ويحرمون على أنفسهم جميع العلاقات الجنسية ، ويجتمعون فى يوم السبت للصلاة الجامعة ويسمون أنفسهم **معالجى النفوس** (Therapeutae)(٩٨) . وقال الملايين من الناس إن الكتابات المعزوة إلى أرفيوس ، وهرمس ، وفيثاغورس ، والعرافات ومن إليهم قد أملاها أو أوحى بها إله من الآلهة . وكان الوعاظ الذين يدعون أن الوحى قد هبط عليهم من السماء يجوبون الأقطار متنقلين من مدينة إلى مدينة ،

يعالجون الناس بما يبدو فى نظرهم أنه من المعجزات . من ذلك أن الإسكندر الأبونوتيكى Alexander of Abonoteictus قد درب أفعى على أن تخفى رأسها تحت ذراعه ، وتقبل أن يثبت فى ذيلها قناع شبيه بوجه الإنسان ، ثم أعلن أن الأفعى هى الإله أسكلبيوس ، وأن هـذا الإله قد جاء إلى الأرض لينبئ الناس بما سوف يقع فى المستقبل ، وقد استطاع أن يجمع ثروة طائلة بتفسير الأصوات الحادثة من الأعشاب التى يضعها فى رأسها المستعار(٩٩).

وأكبر الظن أنه كان إلى جانب هؤلاء المشعوذين آلاف من المبشرين المخلصين المؤمنين بالعقائد الوثنية . وقد صور فيلوستراتس فى أوائل القرن الثالث صورة مثالية لأحد هؤلاء المبشرين فى كتابه **حياة أبولونيوس التياناى** of Tyana ، فوصفه بأنه حين بلغ السادسة عشرة من عمره قيد نفسه بقيود الإخوان الفيثاغوريين الصارمة ، فحرم على نفسه الزواج ، وأكل اللحم ، وشرب الخمر ، ولم يحلق لحيته قط ، وامتنع عن الكلام خمس سـنين كاملة(١٠٠) ، ووزع المال الذى تركه له والده على أقاربه ، وأخذ يطوف ، كما يطوف الرهبان المعدمون ، فى فارس ومصر ، وغربى آسية ، وبلاد اليونان ، وإيطاليا ؛ وأتقن علوم المجوس ، والبراهمة ، والزهاد المصريين . وكان يزور هياكل الأديان على اختلافها ، ويدعو كهنتها إلى الامتناع عن التضحية بالحيوان ، ويعبد الشمس ؛ ويؤمن بجميع الآلهة ، ويعلم الناس أن من ورائها كلها إله واحد أعلى لا يحيط به العقل . وكانت حياة التقى وإنكار الذات التى فرضها على نفسه مما جعل أتباعه يدعون أنه ابن إله ، أما هو فلم يكن يصف نفسه بأكثر من أنه ابن أبلونيوس . وتعزو إليه الروايات المتواترة كثيراً من المعجزات : فقد كان الناس يقولون إنه يمر من خلال الأبواب المغلقة ، ويفهم جميع اللغات ، ويطرد الشياطين ، وإنه رفع بنتا من بين الأموات(١٠١) . لكنه كان فى واقع الأمر فيلسوفا أكثر منه ساحراً ،

يعرف الأدب اليونانى ويحبه ، ويدعو إلى مبادئ أخلاقية بسيطة ولكنها صارمة . وكان يتوسل إلى الآلهة بقوله : « علمينى ألا يكون لى إلا القليل وألا أرغب فى شىء » . ولما سأله أحد الملوك أن يختار لنفسه هدية يهديها إليه أجابه بقوله : « الفاكهة اليابسة والخبز[١٠٢] » . وكان يبشر بتجسد الروح بعد مفارقتها الجسد ، ولهذا أمر أتباعه ألا يؤذوا مخلوقا حيا ، وأن يمتنعوا عن أكل اللحم ؛ وحضهم على تجنب العداء ، واغتياب الناس ، والغيرة ، والكراهية ؛ ومن أقواله لهم : « إذا كنا فلاسفة ، فلن نستطيع أن نكره بنى جنسنا »[١٠٣] . ويقول فيلوستراتس إنه « كان فى بعض الأحيان يناقش المبادئ الشيوعية ويعلم الناس أن من واجبهم أن يعين بعضهم بعضاً »[١٠٤] . ولما اتهم بأنه يثير نقع الفتنة ، ويعلم الناس السحر ، جاء طائعا إلى رومة ليبرئ نفسه أمام دومتيان من هاتين التهمتين ، فسجن ، ولكنه فر من سجنه ومات حوالى سنة ٩٨ م . بعد أن عمر طويلا . وادعى أتباعه أنه ظهر لهم بعد موته وأنه رفع بعدئذ إلى السماء[١٠٥] .

ترى ما هى الصفات التى جعلت نصف رومة ونصف الإمبراطورية ينضويان تحت ألوية هذه الأديان الجديدة ؟ من هذه الصفات ما تنطوى عليه هذه الأديان من عدم التفرقة بين الأجناس والطبقات ؛ فقد كانت تقبل بين أتباعها خلائق من جميع الأمم ، وجميع الأحرار ، وجميع الأرقاء . ولا تلقى بالا إلى ما بين الناس من فروق فى الأنساب أو الثراء ، وكان هذا من أسباب السلوى لهؤلاء الأتباع . وقد بنيت هياكلها بحيث تتسع لكل من يؤمها من الخلائق العباد وللإله المعبود . وكانت سيبيل وإيزيس إلاهتين أمين ثاكلتين ذاقتا مرارة الحزن كما ذاقته ملايين الأمهات الثاكلات ، وكان فى مقدورهما أن تدركا ما لا تستطيع أن تدركه الآلهة الرومانية — ألا وهو فراغ قلوب المغلوبين . إن الرغبة فى العودة إلى أحضان الأم أقوى من غريزة الاعتماد على الأب ، واسم الأم هو الذى يخرج

من تلقاء نفسه إلى الشفتين إذا ما صادف الإنسان سرور عظيم أو حلت به كارثة أليمة . ومن أجل هذا كان الناس رجالهم ونساؤهم على السواء يجدون لهم سلوى وملجأ فى إيزيس وسيبيل ، بل إن العابد التقى فى بلاد البحر الأبيض المتوسط فى هذه الأيام يلجأ إلى مريم أكثر مما يلجأ إلى الأب أو الابن ، وإن الصلاة المحببة التى يرددها أكثر من سائر الصلوات هى الصلاة التى لا يوجهها إلى العذراء بل إلى الأم التى بورك فيها بمن ولدته من بطنها .

ولم تكن قوة الأديان الجديدة مقصورة على أنها أعمق أثراً فى قلوب الناس بل كان من أسباب قوتها فوق ذلك أنها أعظم أثراً فى خيال الناس وحواسهم لما فيها من مواكب ، وترانيم ، تتنقل من الحزن إلى السرور ، وما تحتويه من طقوس ذات رموز تنطبع فى الخيال وتبعث الشجاعة من جديد فى النفوس التى أثقلتها الحياة الرتيبة المملة . ولم تكن مناصب الكهانة الجديدة يملؤها ساسة يرتدرن الثياب الكهنوتية من حين إلى حين بل كان يشغلها رجال ونساء من كافة الطبقات ، يتدرجون فيها من المبتدئ المتقشف الزاهد إلى الخادم الدينى الذى لا ينقطع عن مواساة الناس . وكان فى مقدور الروح التى تدرك ما ارتكبته من ذنوب أن تتطهر منها ؛ وكان يستطاع فى بعض الأحيان شفاء الجسم الذى أنهكته العلة ، بكلمة أو طقس موح ؛ وكانت المراسم السرية الخفية التى يمارسونها ترمز إلى ما يتردد فى صدور الناس من رجاء فى أن يتغلبوا على كل شىء حتى الموت نفسه .

لقد سما الناس فى وقت من الأوقات بما كانوا يتوقون له من عظمة وخلود ، فجعلوهما مرتبطين بمجد الأسرة والقبيلة والإبقاء عليهما ، ثم انتقلوا بهما إلى مجد الدولة التى كانت من صنعهم والتى هى نفوسهم مجتمعة . أما فى الوقت الذى نتحدث عنه فكانت الحدود الفاصلة بين القبائل تذوب فى حركة السلم الجديدة ، ولم تكن الدولة الإمبراطورية تعبر إلا عن الطبقات العليا السائدة ، ولم تكن تمثل

جماهير الشعب التى لا حول لها ولا طول . وكان على رأس الدولة ملكية مطلقة تحول بين المواطن وبين اندماجه فيها واشتراكه فى أعمالها ، وكانت تخلق بعملها هذا الفردية فى أسفلها وتشيعها بين الدهماء من السكان . وكان ما فى الأديان الشرقية وما فى المسيحية . التى أخذت منها خلاصتها ثم امتصتها وقضت عليها ، من وعد بالخلود الشخصى ، وبالسعادة الدائمة بعد حياة المذلة ، والفاقة ، والمحن ، والكدح ، كان هذا كله إغراء لا تستطيع الدهماء مقاومته . ولاح أن العالم كله أخذ يأتمر ليمهد السبيل إلى المسيح .